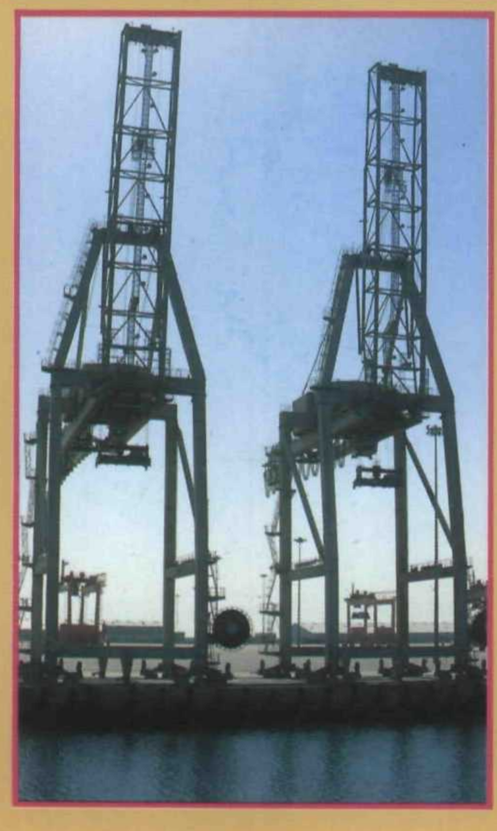
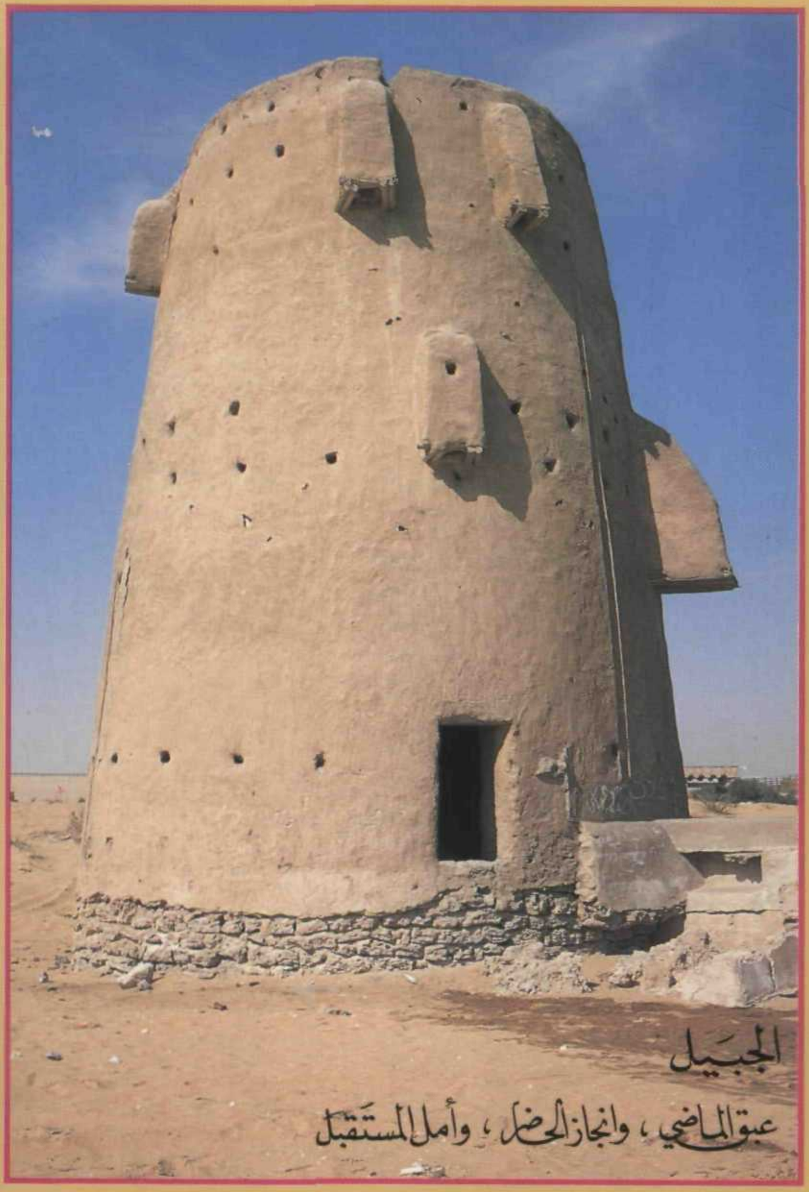
القافلة

ربيع الأول ١٤٠٨هـ/ أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧م







الجبيل

عبق الماضي، وانجاز الحاضر، وأمل المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN - OCT./NOV. 1987

ربيع الأول ١٤٠٨هـ/ اكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧م
العدد الثالث/ المجلد السادس والثلاثون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

توزع مجاناً


الجبيل: عبق الماضي، وانجاز الحاضر وأمل المستقبل


الاستعمال غير الطبي للعقاقير كابوس المجتمعات الحديثة ..


مناخ الأرض .. إلى أين يتجه ؟

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM



بقلم: د. أحمد جمال العمري / جدة

نزل القرآن الكريم على قلب النبي الأمي، صلى الله عليه وسلم، ولم يكد يقرع آذان القوم حتى وصل الى قلوبهم، وتملك عليهم حسهم ومشاعرهم، ولم يعرض عنه الا نفر قليل، اذ كانت على القلوب منهم اقفالها، ثم لم يلبث أن دخل الناس في دين الله افواجا، ورفع الاسلام رايته خفاقة فوق ربوع مكة، وأقام المسلمون صرح الحق، مشيّدا على انقاض الباطل.

وكان القوم عربا خلَّصا، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه، ومضامينه ومراميه، بمقتضى سليقتهم العربية، وبما يتمتعون به من صفاء الذهن، وقوة العارضة، وكانوا يعرفون من اسراره ما لا يعرفه أحد، ولكنهم لم يدونوها، لأن القرآن قد ملأ عليهم حياتهم، فكانوا دائبين على دراسته وفقهه، ونشره بين المسلمين.

وكانت للقوم وقفات امام بعض النصوص القرآنية، التي دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، اذ كانوا يرجعون في مثل ذلك، الى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فيكشف لهم ما دق عن افهامهم، ويجلي لهم ما خفي عن ادراكهم، وهو الذي عليه البيان، كما عليه البلاغ، تحقيقا لقول الحق سبحانه: ﴿**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ (النحل — ٤٤).

كان النبي، ﷺ، يفسر القرآن، فيربط بين الآيات والآيات، وبين الآيات ومناسبات النزول، ويوازن بين المعاني.

تذكر لنا المصادر، أن بذورا من التفسير الموضوعي، نبتت على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعهد صحابته. رضوان الله عنهم أجمعين. من ذلك ما جاء في مناسبة نزول الآية الكريمة: ﴿**واللآئي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائي لم يحضن وأولات الاحمال اجلهن أن يضعن حملهن**﴾ (الطلاق — ٤). يقول تعالى، مبينا لعدة الآيسة، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، انها ثلاثة أشهر، عوضا عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللآئي لم يبلغن سن المحيض، ان عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر. فقد أشكل على بعض الصحابة هذا الشرط، وجاء سبب النزول معينا لهم على فهم المراد منه.

فقد أخرج الحاكم، عن أبي بن كعب، انه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء وهي: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في ارحامهن**﴾ (البقرة — ٢٢٨). والآية الأخرى، ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن**

بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ (البقرة ـــ ٢٣٤).
قالوا: قد بقيت عدد لم تذكر، وهي عدد الصغار والكبار، فنزل قول الله: ﴿واللآئي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر..﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ان ارتبتم﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهو قول «مجاهد» و«الزهري»، أي ان رأين دما وشككتم في كونه حيضا او استحاضة، وارتبتم فيه.

والثاني: وهو قول «سعيد بن جبير» ان ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر، وهو أظهر في المعنى. وقد احتج عليه بقول أبي بن كعب: يا رسول الله: ان عددا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب، الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فأنزل الله عز وجل الآية: ﴿واللآئي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾ ويضع علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه بفكره الثاقب، ونظره الصائب، لبنة أخرى من لبنات التفسير الموضوعي. فقد كان علي يجمع الآيات في الموضوع الواحد، ليستخلص منها جميعا، حكما صادقا، يفسر فيه القرآن بعضه بعضا. من ذلك قصة مراجعته لعمر بن الخطاب في اقامة حد الزنا على امرأة وضعت بعد زواجها بستة أشهر.

يقول ابن حزم: ان عليا ذكَّر عمر بن الخطاب بقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ (الاحقاف ـــ ١٥). مع قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين﴾ (البقرة ٢٣٣). فرجع عمر عن اقامة الحد عليها.[١]

أي أن عمر بن الخطاب، حكَّم العادة الجارية، من أنه لا تلد المرأة لأقل من سبعة أشهر، فاعتبر ولادتها قبل ذلك قرينة لاقامة الحد عليها. لكن عليا، كرم الله وجهه، استدرك عليه، وتدارك الأمر، حيث حكَّم القاعدة التي تدرأ الحدود بالشبهات، وفهم من الآيتين السابقتين مجتمعتين، أن مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر، وهي المدة التي تكتمل بسنتي الرضاع «٢٤ شهرا» ثلاثين شهرا، واعتبر ذلك شبهة تحول دون القطع بوقوع الزنا، ومن ثم فلا يقع الحد.

وبمرور الزمن، تطورت الحياة العلمية تطورا كبيرا، ونشط التأليف في معظم العلوم والفنون، نشاطا ملحوظا، وشمل هذا النشاط تفسير القرآن الكريم، والتأليف في علومه. ونرى ممن اهتموا بالتأليف في موضوعات القرآن، علماء كثيرين يختلفون في عصورهم، ومذاهبهم، ونوع اهتماماتهم..

وفيما يتصل بالتفسير، نجد ابن تيمية، في القرن السابع، يحمل حملة شعواء على الاسرائيليات المدسوسة في التفاسير، وفي رأيه أن هذا هو الذي دفع الامام أحمد بن حنبل، الى أن يقول: «ثلاثة لا أصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي».

كما حمل ابن تيمية، في تفسيره، على المعتزلة والباطنية، الذين يصرفون الفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة، الى معان بعيدة، تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم، وحمل أيضا على الصوفية، ملاحظا أنهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة، غير أن القرآن لا يتضمنها، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من وحدة الوجود، ووحدة الشهود والفناء في حقيقة الله.

وخلص ابن تيمية، في تفسيره، الى أن خير طرق التفسير، ان يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع، بسط في موضع آخر، وما ذكر موجزا في آية، جاء مفصلا في آية أخرى، وان لم يف القرآن احيانا بالمراد، رجع المفسر الى الحديث النبوي، فان الرسول، صلى الله عليه وسلم، فسر بعض الآيات. ويضم المفسر الى ذلك أقوال الصحابة، الذين رافقوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفهموا عنه التنزيل، وكذلك أقوال التابعين، الذين خالطوهم، ووقفوا منهم على معاني القرآن الكريم.

ويرى ابن تيمية، في منهجه التفسيري، ان تفتح الأبواب امام المفسر، ليجتهد ويستنبط، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العدة لذلك، باستيعابه للذكر الحكيم، وآياته، ومعانيه المتقابلة، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه. وبعد أن يتقن العربية، ويتعمق في علوم الشريعة، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن، وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة. وتلك هي العناصر التي ترتبط في معظمها بالتفسير الموضوعي بمفهومه الشامل.

ولقد مضى ابن تيمية يطبق منهجه التفسيري هذا على بعض السور القرآنية، وفي مقدمتها سورة النور، وبعض سور قصار من جزء عم، وخص سورتي المعوذتين برسالة مستقلة، وافرد كتابا لتفسير سورة الاخلاص، وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده، يتحول الى بحث في مضمونها من خلال القرآن كله.

وسار على منهجه، تلميذه الأثير، ابن قيم الجوزية (ت ٧٢١هـ) في تفسير أقسام القرآن، وفي تفسيره للمعوذتين، اذ كثيرا ما يتوقف ازاء مضمون آية ليشير الى مضمون مماثل لآية أخرى، ابتغاء الدقة في التفسير.

وقد وضع الراغب الاصفهاني، في القرن الخامس الهجري، معجما عظيما لألفاظ القرآن، عرض فيه كل لفظة من ألفاظه، وجميع استعمالاتها المبثوثة فيه، لتكون دائما تحت أعين المفسرين، فلا يختلط عليهم معنى، ولا تضطرب عليهم دلالة. فكان هذا المعجم منبعا خصبا يرده كل من تصدى لتفسير القرآن حسب المنهج الموضوعي.

والحقيقة أن العلماء الأول، خاصة رجال التفسير، لم يتركوا للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميه، اذ انهم نظروا الى القرآن باعتباره دستورهم، الذي جمع لهم بين سعادتي الدنيا والآخرة. فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلون بألوان مختلفة.

والباحث المدقق، الذي يعكف على دراسة بحوث التفسير على اختلاف الوانها، لا يدخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة، قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، والدراسة والتدقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية والفلسفية، كل هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسرون الأول بتوسع ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم، الى ما قبل العصر الحديث بقليل، من عمل جديد، أو أثر مبتكر، يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم الا عملا ضئيلا، لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدمين، أو شرحا لغامضها، أو نقدا وتفنيدا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحا لرأي على رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار[٢].

وفي العصر الحديث، ظل الأمر على هذا، وبقي التفسير واقفا عند هذه المرحلة، مرحلة الركود والجمود، لا يتعداها ولا يحاول التخلص منها، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء، الذين لهم عناية بدراسة التفسير، الى أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة، وان كانت تعتمد على ما دونه الاوائل، الا أنها أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن، تأثيرا لا يسعنا انكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حشرت في التفسير حشرا. ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الاسرائيلي، الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة، أو الموضوعة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو على صحابته، عليهم رضوان الله تعالى، والباس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا، موضوعيا، يظهر روعة القرآن، ويكشف مراميه الدقيقة، واهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ، وجهد ظاهر، بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة. وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون، وغير المسلمين، أن القرآن هو كتاب الله الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع اطواره ومراحله.

وهناك غير هذه الآثار، آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري، في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها التوسع العلمي، وانتشار الثقافة، واتساع الحضارة[٣]. وفي مقدمتها: التفسير العلمي، التفسير الادبي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي.

(١) «الاحكام في اصول الاحكام» ٢/١٢٥.

(٢) الدكتور محمد حسين الذهبي: «التفسير والمفسرون» ج/٢ ص/٤٩٥. طبع مصر سنة ١٩٦٨م.

(٣) «التفسير والمفسرون» ج/٢، ص/٤٩٥.

التفسير الموضوعي

نشأ التفسير الموضوعي، في العصر الحديث، مقترنا وممتزجا بالتفسير الأدبي، ذلك التفسير الذي تظهر فيه ذاتية المفسر، وشخصيته، وملكته الأدبية، وقدرته على بلورة الأفكار، وتقديم التصورات الممكنة، والمحتملة، والجائزة، في غلاف شفاف من الأسلوب الأدبي المؤثر، المحرك لمشاعر القارىء أو السامع ووجدانه، وهو يعتمد ايضا على التفنن في استجلاء مكامن علوم البلاغة، لاظهار ما يؤديه من جمال التصوير، وروعة التعبير، في اطار من حسن العرض، وكمال التحليل، وجودة التعليل.

وقد بدأ هذا اللون من التفسير، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تقريبا، بجهود عالم جليل هو الامام الشيخ محمد عبده. فقد رأيناه يحاول، على هدى قراءاته لابن تيمية، أن يعرض تفسيرا دقيقا للجزء الثلاثين من القرآن الكريم، وهو جزء «عم»، اخلاه من كل الشوائب العقيدية والاسرائيلية، ومكن فيه لرفض البدع والخرافات، واستخدم الفكر الحر، في فهم معاني القرآن، وما دعا اليه من الرقي بالروح، والنهوض بالمجتمع، في أسلوب أدبي ناصع، وبتحليل علمي دقيق.

أما الرقي الروحي، فما قدم للانسان من تهذيب خلق قويم. واما النهوض بالمجتمع، فما وثق بين أفراده من تعاون وتكافل، مع تقديم كل الأسباب، كي يتحقق الكمال الفكري والروحي والاجتماعي، الذي يطمح اليه الانسان.

وقد دعم الشيخ محمد عبده، في تفسيره لهذا الجزء فكرة وحدة السياق في السورة الواحدة، وان المدار على عموم اللفظ، لا على خصوص السبب، ودعا دعوة قوية الى التسليم بكل ما هو من عالم الغيب. كعالم الملائكة، والجن، والشياطين، وكالبعث، وما يتصل به من الثواب والعقاب، فكل ذلك ينبغي أن نسلم به لقصور عقولنا عن معرفة كنهه، والتعمق في حقائقه. فكان هذا التفسير نبراسا هاديا، لكل من تصدى لتفسير القرآن تفسيرا موضوعيا، استنادا الى القرآن جميعه، واعتمادا على الآيات القرآنية ذاتها، والاحاديث النبوية الصحيحة، واقوال صحابة رسول الله، وتابعيهم، وما جاء في المصادر المختلفة متصلا بمناسبات التنزول.

ولقد سار على المنهج نفسه علماء كثيرون، نذكر منهم: سيد قطب، وأمين الخولي، والدكتورة عائشة عبدالرحمن، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور محمد خلف الله احمد. وان كنا لا نغفل جهود هؤلاء العلماء المحدثين، الذين كتبوا في موضوعات عدة تتصل بالقرآن، فقد ألف مصطفى صادق الرافعي كتابا في اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، والف محمد مصطفى المراغي كتابا في ترجمة القرآن واحكامها، وألف محمد فريد وجدي كتابا في الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن الى اللغات الاجنبية. الى غير ذلك من الكتب العلمية الرائدة، التي تتصل بهذا اللون من التفسير.

سـيّد قطب

يعد سيد قطب، من أوائل العلماء، الذين اهتموا بهذا اللون من التفسير الموضوعي، الذي يقترن بالتفسير الأدبي الفني، فله تفسيره «في ظلال القرآن»، وله الى جانب هذا التفسير كتابان، درس فيهما موضوعين من موضوعات القرآن. أولها يتناول «مشاهد القيامة في القرآن». والثاني يحلل الصور الفنية والجمالية في القرآن، وهو «التصوير الفني في القرآن».

والتفسير «الظلال» و«التصوير» و«المشاهد» ثلاثتهم تنبع من روح واحدة، وتتجه وجهة واحدة، هدفها: محاولة تفسير القرآن الكريم تفسيرا أدبيا وموضوعيا، يبرز جمال الصور الفنية، ويحللها تحليلا أدبيا جميلا. ويتحدث سيد قطب في مقدمة كتابه «التصوير الفني»، عن الحافز الذي أغراه بانتهاج هذا المنهج، وسلوك هذه الطريقة من التفسير، فيقول: انه قرأ القرآن وهو طفل صغير لم ترق مداركه الى آفاق معانيه، ولا يحيط فهمه بجليل اغراضه، ولكنه كان يجد في نفسه منه شيئا. وكان خياله الساذج الصغير، يجسم له بعض الصور من خلال تعبير، وأنها لصور ساذجة، ولكنها كانت تشوق نفسه، وتلذ حسه، فيظل حقبة غير قصيرة يتملاها، وهو بها فرح، ولها نشيط.

ان تفسير سيد قطب، وان كان قد اهتم اهتماما كبيرا بابراز الصور الفنية، والقيم الجمالية، الا أنه اهتم ايضا بالموضوعات القرآنية، فأبرزها من خلال تحليله وتناوله للصور الفنية، فكان يربط بين الموضوعات، مستغلا في ذلك كل العناصر التوضيحية، من آيات القرآن الكريم، ومناسبات نزوله، ومن الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، فكان الموضوع القرآني بين ذهنه وتفسيره، وكأنه بحث متناسق متكامل، يرتبط أوله بآخره، مشتملا على كل ما يتصل به من جزئيات.

والحقيقة.. أن تفسير سيد قطب، كان وحيد عصره، على الرغم من وجود بعض المحاولات التفسيرية، لاستنباط الصور الفنية، والموضوعات القرآنية، فان واحدا من تلك البحوث أو المؤلفات، لم يبلغ ما بلغه سيد قطب في هذا المضمار، خاصة وانه فسر القرآن الكريم جميعه، بهذه الطريقة الفنية، الادبية والموضوعية.

أمين الخولي والدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطىء»

وعلى هذا النهج أيضا، حاول أمين الخولي، رحمه الله، أن يفسر القرآن الكريم. وسارت على الطريق نفسه، الدكتورة عائشة عبدالرحمن تلميذته، في كتابها «التفسير البياني للقرآن الكريم». والفرق بين مجهود سيد قطب، ومجهودهما هو أن الأول، كما ذكرنا، فسّر القرآن جميعه، على طريقته. أما امين الخولي، وتلميذته، فقد فسرا سورا عدة منه، في اطار الدراسات الجامعية.

فقد ألقى أمين الخولي، دروسا ثمينة، في التفسير القرآني، على طلبته بالجامعة، كما قدم احاديث اذاعية جيدة، تدور حول بعض المعاني القرآنية، والموضوعات القرآنية.

أما عن منهجه في التفسير.. فقد أوضحته تلميذته القديرة، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، حيث تقول في مقدمة كتابها:(٤) «والأصل في منهج التفسير الأدبي، كما تلقيته عن شيخي، هو التناول الموضوعي، الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ، أو الآية، مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله، مما لا سبيل معه الى الاهتداء الى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو استجلاء ظواهره الاسلوبية، وخصائصه البيانية، وقد طبق بعض الزملاء هذا المنهج تطبيقا ناجحا في موضوعات قرآنية، اختاروها لرسائل الماجستير والدكتوراه، واتجه بمحاولتي اليوم، الى تطبيق المنهج في بعض سور قصار، ملحوظ فيها وحدة الموضوع، فضلا عن كونها من السور المكية، حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الاسلامية. وقصدت بهذا الى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير، وبين منهجنا الحديث، الذي يتناول النص القرآني في جوّه الاعجازي، ويلتزم في دقة بالغة، قولة السلف «القرآن يفسر بعضه بعضا» وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغا، ويحرر مفهومه من كل العناصر الدخيلة، والشوائب المقحمة على اصالتها البيانية».

هذا ما ذكرته الدكتورة عائشة عبدالرحمن، عن منهج شيخها، وهو المنهج عينه الذي انتهجته في دراستها «التفسير البياني» حيث قدمت تفسيرا رائعا في التحليل والتطبيق، لبعض قصار السور.

وهذا المنهج في التفسير، هو ما ارتضاه الشيخ محمود شلتوت، رحمه الله، في تفسيره الفقهي، حيث يقول عن طريقته: «فهي ان يعمد المفسر أولا الى جمع الآيات، التي وردت في موضوع واحد، ثم يضعها أمامه كمواد يحللها، ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض، فيتجلى له الحكم، ويتبين المرمى، الذي ترمي اليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شيء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده، كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الالهي الحكيم، وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى، وخصوصا في التفسير الذي يراد اذاعته على الناس، بقصد

(٤) «التفسير البياني للقرآن الكريم»، ص/١٤ طبع دار المعارف.

ارشادهم الى ما تضمن القرآن من أنواع الهداية. والى أن موضوعات القرآن، ليست نظريات بحتة، يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية، فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية، ويتصل بحياتهم من شئون»[٥].

لقد كانت جهود هؤلاء العلماء، تتجه الى تفسير القرآن الكريم وفقا للمنهج الموضوعي، الذي يجعل من القرآن الكريم كله وحدة واحدة، يتصل أوله بآخره، وآياته ببعضها، رغم اختلاف مواضيعها وسورها في القرآن. فكان هذا التفسير الموضوعي اوسع وأرحب، لأن عناصره كثيرة، تشمل القرآن الكريم من أوله الى آخره، المهم وحدة الموضوع المدروس، الذي يفسر، ويحلل ويدرس.

ومن هنا كانت الوحدة الموضوعية شاملة واسعة، تمد جوانب الموضوعات بالكثير من العناصر التي توضح الغرض، وتفي بالموضوع، وتسهل فهمه وتناوله.

بيد أن هناك جهودا أخرى بذلت، في اطار التفسير الموضوعي، ولكنها لم تتخذ من القرآن كله مادة لخدمة الموضوع، وانما تناولت السورة القرآنية، بوصفها لحمة متلاحمة، يفسر أولها آخرها، وتوضح آياتها الغرض الاسمى، الذي من أجله نزلت، ومن أجله جمعت في اطار محدد بين دفتي السورة. فهنا يكون التفسير الموضوعي محددا بأغراض السورة، ومناسبات نزول الآيات فيها، وما جاء فيها من موضوعات، تفسر في اطار السورة، ولا تخرج عنها الا قليلا..

ومن أبرز من قام بمثل هذا التفسير الموضوعي في اطار السورة، استاذان جليلان هما: **الاستاذ الدكتور محمد خلف الله احمد. والاستاذ الدكتور شوقي ضيف** وكلاهما استاذ جامعي، بذل جهدا مشكورا في احياء الدراسات البيانية للقرآن الكريم، ووجه طلابه الى دراسة التطور التاريخي للدراسات القرآنية، في ظلال ما حفلت به المكتبة القرآنية من تراث يتطلب التحليل، كما وجههم الى دراسة النصوص القرآنية، في ظل ما تمخضت عنه العلوم الحديثة من ثمار يانعة في حقول النقد والبلاغة، وعلوم النفس والتربية والاجتماع. وهو عمل مبارك يزكيه ما عرف عن الاستاذين الجليلين من دقة تحديد، وسلامة اتجاه، وصدق وايمان.

وللاستاذين الجليلين دراسة تطبيقية موضوعية لسورة كريمة من سور القرآن العظيمة: فالاستاذ الدكتور محمد خلف الله تناول تفسير سورة الرعد، تفسيرا موضوعيا، يكشف عن اتجاهه التجديدي في حقل الدراسات القرآنية، وهي دراسة جديرة بالاهتمام والتحليل[٦]. والبحث والدراسة: ولقد بدأ باستعراض الآيات الكريمة في سورة الرعد، مبينا اغراضها العامة على نحو شامل عام. ثم انتقل الى الحديث عن فواصل الآيات، فوجد أن السورة تضم ثلاثا وأربعين فاصلة، ختام كل آية منها كلمة ممدودة بالألف، بعد حرف، الا ستة منها ممدودة بالواو.

٭ وثلث خواتيم هذه السورة على روي الباء، مثل: «العقاب، الألباب، الحساب، مآب».

٭ وأكثر من نصف هذا العدد على روي الراء: «بمقدار، النهار، القهار، الدار».

٭ ونصف العدد الأول على روي اللام، مثل: «المتعال، وال، الثقال، ضلال». وغير ذلك مما أشار اليه.

ثم أعقب ذلك بالاشارة الواضحة الى وحدة ظاهرة في موضوع هذه السورة، وهي اظهار شرف الكتاب المنزل، وتسفيه آراء المعاندين في طلبهم قرآنا غير هذا، أو آية مادية مثل آيات السابقين من الرسل. ثم اتبع ذلك بالاشارة الى طابع الخواتيم. اذ انتهت الفواصل فيها بحروف متقاربة المخارج.

اما ناحية الجمال الفني، فقد ظهرت في ائتلاف الالفاظ مع المعاني، وفي تناسب الألفاظ والاصوات، وفي اشتقاق قاموس السورة من البيئة العربية ذات الرعد، والبرق، والسحاب، وفي المتقابلات المختلفة، من أمثال: الغيب والشهادة، والسر والجهر، لينتهي من ذلك كله الى انفراد القرآن بطابع خاص، لا يوجد في المألوف من النثر والشعر. والسورة بذلك كل متكامل، في منطق الدكتور خلف الله.

والظاهرة الواضحة في دراسته، هو الاهتمام بالنواحي الشكلية، أكثر من اهتمامه بالناحية الموضوعية، اذ أن الصور البيانية التي حفلت بها سورة الرعد، كانت في حاجة الى وقفات تحليلية، تظهر ما بها من جمال وتأثير، كما أن تناسب الآيات وتآخيها، لم يجد من الأيضاح الشامل ما يجعله أمام القارىء أمرا لا مرية فيه. بيد أن هذا لم يمنع من كون الدراسة شائقة جديدة وتشير الى نمط جديد.

اما دراسة الدكتور شوقي ضيف، فهي دراسة ساقها اليه منهج الدراسات الجامعية، اذ كان القرآن يدرس بايجاز، على أنه لون من الوان الفن الأدبي في صدر الاسلام، وكان قصار الدارس ان يتكلم بوجه عام عن اغراض القرآن، ومعانيه، وألفاظه، ثم يفسح المجال للاستشهاد بنصوص مختارة.

وقد كان الدكتور ضيف يقوم بتدريس مادة التفسير، في بعض الأعوام، لطلاب قسم اللغة العربية، في كلية الآداب، جامعة القاهرة، وقد اتسع على يديه مجال الدراسة الأدبية للقرآن، وأخذ يمتد على نحو حميد، حيث شمل تحليل النصوص القرآنية، تحليلا يكشف عن لآلئها الساطعة، وموضوعاتها العظيمة. وكان من نتائج دراساته القرآنية، تلك الدراسة الجيدة لسورة الرحمن وقصار السور[٧]. التي تعد نموذجا جيدا للتفسير الموضوعي لسور القرآن.

وهكذا نشطت الدراسات الموضوعية والأدبية، لنصوص الكتاب الكريم، في عهدنا الحاضر، نشاطا حافلا، نرجو أن يتزايد ويمتد حتى يصبح للمكتبة القرآنية مكانها اللائق في دنيا البيان، اذ تجمعت دواع مختلفة تدعو الى نشاط هذه الدراسات، وتؤذن باكتمالها الزاهر في يوم قريب، بعد أن دعت الحاجة اليه، نظرا لتقدم العلوم والمعارف، وتغير العادات والتقاليد، وظروف الحياة، عما كانت عليه من قبل. وحيث أصبحت الحاجة ماسة الى النظر في القرآن، للكشف عما فيه من تشريعات وقواعد وسلوك حميد، وللاسترشاد به في كل حال من احوالنا، وشأن من شئوننا، لاشتمال كتاب رب العالمين على كثير من المباحث والموضوعات، التي تخدم الفرد والمجتمع، وتدفع بالجميع الى معرفة أقوى وأرسخ لفهم القرآن، وإعلاء كلمة الله، فكان لا بد من الاتجاه اليه، نستوحيه في كل شأن من شؤوننا، ونسترشد به في كل حال من احوالنا، فهو الدواء من الاسقام النفسية، والعلل الجسمية، وهو العلاج الناجع لكل مشاكلنا السياسية والاجتماعية.

من هنا نقول، اننا لسنا في حاجة الى التفسير الموضوعي، في أي زمان مثل احتياجنا اليه في هذا الزمان، الذي يطالب فيه المسلمون ان نخرج لهم من البحوث العلمية الصحيحة، التي تنظم علاقاتهم بربهم، وبمجتمعهم الكبير، واسرهم واولادهم، ومتطلبات أنفسهم. لأنه اذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها، متجهة به الى غايتها، مبرزة لنواحي الحكمة في دعوة القرآن اليها، كان ذلك النهج باعثا للمطلع عليه الى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن، حيث كان واضح الغاية، محدد النهاية، بارزا في تصويره، جامعا لكل الأهداف في تحقيقه.

فاذا ما اشبع الانسان رغبته من موضوع، وانتقل الى موضوع آخر، منتهجا ذلك المنهج، كان القرآن بيّنا للناس في جميع نواحيه، متجها بهم الى جميع مراميه، ولا شك أن ذلك المسلك، وتلك الطريقة تؤدي بالناس الى أن يفهموا القرآن، فيتبينوا اتصالهم بواقع حياتهم، حيث يرشدهم الى الصالح منها، ويجنبهم ما يكون حذرا لهم، وعائقا عن طريق اسعادهم.. وهذه هي أمثل الطرق في التفسير، خصوصا الذي يراد اذاعته على الناس، بغية تفهيمهم ما تضمنه القرآن من انواع الهداية، وابراز ان موضوعات القرآن ليست نظرية بحتة، يسير الناس على نهجها، دون أن يكون لها مثل واقعية تتصل بالأفراد والجماعات. فبمثل هذه التفسيرات الموضوعية، يستشف الانسان هدى القرآن، فيما يصحح به علاقاته بربه، حيث تكون معرفته معرفة صحيحة، لا يشوبها من غبار التشبيه ما يحيد به عن الطريق، وبمعرفته لنفسه يعلم احتياجه الى تلك القوة القاهرة والقادرة □

(٥) «الاسلام والعلاقات الدولية»، ص/١٠.

(٦) نشرت هذه الدراسة في صحيفة «دار العلوم»، الجزء الثالث من السنة السابعة، في ذي الحجة سنة ١٣٥٨هـ.

(٧) نشرت هذه الدراسة بعنوان «سورة الرحمن وقصار السور» في دار المعارف بمصر.

في ربوع القصيم

شعر: ابراهيم عبدالله المديفر / الرياض

تلفَّت قلبي للقصيم تهزني … تباريح شوق للبلاد وهاجس
ترحَّلُ فيها العين وهي قريرة … ويطغى أوار الشوق منها مجالس
مجالس تروي عن بطولات اهلها … ترى حبة الايقاع وهي دوارس
هناك ينابيع تروق لناظري … مكان ثمادٍ تحتويها البسابس
مياه الحياة تستحث نباتها … كأنَّ الذي تأتي جهاد يمارس
فيخضَلُّ روض بالبطين توشحت … به أكمات والجنى متكاوس
شجيرات شيح عانقت ساق حنطة … على الأرض تِبْر واللجين يلامس
ويلقي اليك الياسمين تحية … تناجيك ازهار وهن خوارس
فوا عجَباً بنتُ السماء تجاورت … مَعَ ابنة حقل بينهن تجانس
نوافِرُ فوق الأرض تُسقىَ بوابل … هتون من الوسمي والطل كابس
ولو نظرت زرقاء حجر حقوله … لرد اليها طرفها وهو بائس
وان جاس فيها فارس متمكن … لعاد ثقيل الخطو والوجه عابس
زُر الخب كي تحظى بابدع منظر … أساور رمل والاكف غرائس
وتأخذك الرؤى اذا جلت حولها … خليط من الأثمار جونٌ دوارس
رمالا أسانوا فوقها الطين فاستوت … مغانيَ حرث كمَّمتها طيالس
طيالس وشي من حرير وسندس … يرفرف فيها الزهر والزهر مائس
تمغّط ظلّ مدَّه عبَل النظا … غدا كعبة الأطيار والظبي كانس
وكم نثرت انسام صيف عبيرها … لتنشر مسكا والرياح نسانس
وراعفة بالدبس يسبيك لونها … ومن حزنها تلقى الكلال مدابس
وان شدخت بطيخة خلت أنها … جمانٌ يُحَشّى ما تمج الجوارس
عصارة شمّام تحاشت عن الأذى … فلا الغول يأتيها ولا الفم قامس
وعرج على أرض القصيم فجوّها … بديعٌ وحمضياتها تتكادس
فخوخٌ ورمانٌ وتينٌ ومشمشٌ … واعنابها تجتال فيها الهجارس



الجبيل

عبق الماضي ، وانجاز الحضر ، وأمل المستقبل

كانت قرية صغيرة وادعة .. فأصبحت قلعة صناعية متطورة

بقلم : يوسف خالد أبوبشيت / هيئة التحرير

في الطرف الشمالي الشرقي لشاطئ المنطقة الشرقيّة ، وعلى ضفاف الخليج العربي ، وعلى بُعد ٨٠ كيلومتراً تقريباً عن مدينة الدمّام شمالاً تقع مدينة الجبيل على شريط ساحلي يضيق ويتسع قليلاً إلى أن يصل إلى جزيرة أبوعلي في الشمال الغربي من المدينة .. تلك المدينة ، التي كانت قبل استخراج النفط في المملكة ، قرية صغيرة وادعة يسكنها عدد من صيّادي الأسماك ، وبعض من تجار وغواصي اللؤلؤ حيث كانت تجارته هي السائدة يومئذٍ .

أما اليوم فقد أصبحت الجبيل قلعة صناعية متطورة ، بفضل الله ، ثم بجهود حكومة خادم الحرمين الشريفين التي لم تأل جهداً في سبيل اقامة هذه الدعائم للصناعات الضخمة في الجبيل . وفي هذا الصدد تحدث الأستاذ سيف بن سعد القحطاني ، أمير الجبيل ، فقال : « مما لاشك فيه أن الجبيل حظيت باهتمام حكومة خادم الحرمين الشريفين بتوفير كافة المرافق الأساسيّة سواء كانت صناعيّة أو اداريّة أو أمنيّة . كما حظيت بمتابعة صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز ، أمير المنطقة الشرقيّة وسمو نائبه ».

جغرافية ومناخ الجبيل

تقع مدينة الجبيل على خط الطول ٤٩,٢٤° شرقا وخط عرض ٢٧,٠٢° شمالا. وتبين الدراسات الجيولوجية ان طبيعة أرض هذه المنطقة ترتفع كلما اتجهنا الى غرب أو جنوب المدينة، وتنخفض كلما اتجهنا نحو الشاطىء مشكلا ساحلا جميلا يميل لون مياهه الى الأخضر الفاتح المشوب بزرقة خفيفة.

ويسود الجبيل طقس المنطقة الشرقية الحار صيفا والمعتدل شتاء، حيث تتراوح الحرارة بين ٢٥ و٤٠ درجة مئوية في الصيف. وفي الشتاء تتراوح الحرارة بين ١٠ و٢٠ درجة مئوية.

ويتراوح عدد سكان الجبيل ما بين ٦٠ و٦٥ الف نسمة،وتبلغ المساحة الاجمالية لمدينة الجبيل وتوابعها ما يقرب من الفي كيلومتر مربع.

الجبيل عبق الماضي

لا يختلف اثنان في أن منطقة الخليج العربي مرتبطة ارتباطا تاريخيا وثيقا منذ القدم، بمراكز حضارات، واستراحات تجارية قديمة معروفة، خاصة تلك المدن أو المناطق التي كانت تقع على طريق الكنهري القديم الذي كان يربط مدن شرق الجزيرة بوسطها وجنوبها، ومنها الى بلاد الشام والعراق. كما أن هناك طريقا آخر، هو الطريق الداخلي والذي يحتمل أن اتجاهه كان من جزيرة تاروت الى جاوان شمال صفوى، ثم يتجه الى الجبيل، ومنها يأخذ مساره الى داخل الجزيرة. كما يقول الاستاذ علي صالح المغنم، مدير المتحف الاقليمي بالدمام.

وللوقوف على أهمية منطقة الجبيل من الناحية التأريخية ولمعرفة حضاراتها واممها القديمة يحدثنا الاستاذ الشاعر عبدالرحمن عبدالكريم العبيد فيقول: «ان المؤرخين لهم آراء مختلفة حول الموضوع فمنهم (هيرودتس) اليوناني المتوفى سنة ٤٠٦ ق.م. صاحب النظرية التي تعتبر الخليج العربي موطن الفينيقيين. ولا يوجد حتى الآن آثار في الجبيل تؤيد أو تنفي هذا الزعم، وليس للفينيقيين معالم أثرية سوى أسماء بعض الأماكن، ومنها —جبيل— لكن الأسم من الوجهة اللغوية مصغر —جبل—، وأنا استبعد فينيقية الجبيل. أما صاحب كتاب «ساحل الذهب الأسود»، فيقول: «وأغلب الظن أن تأريخها يرجع الى عهود الفينيقيين، كما يدل على ذلك اسمها، ويبدو أنهم نقلوا هذا الاسم ذاته حين هاجروا الى لبنان، واطلقوه على بلدة أسسوها هناك تقع شمالي بيروت». هذان رأيان يؤيدان الفكرة القائلة بأن الجبيل موطن كان للفينيقيين، وكما نرى فان صاحب كتاب «ساحل الذهب الأسود» لم يأت بجديد وإنما استند الى الرأي الأول.

أما الأستاذ حمد الجاسر فيقول عن فينيقية الجبيل: «ويرى بعض المؤرخين، ومنهم الاستاذ محب الدين الخطيب، ان اسم الجبيل قديم وانه من عهد الفينيقيين، ويحاول هؤلاء الربط بين الجبيل هذا والجبيل الواقع في لبنان.. وكون الفينيقيين سكنوا شرق الجزيرة لا يكفي دليلا على قدم هذه البلدة.»

وحول كلمة (عينين) التي اطلقت على الجبيل في عصور سابقة، يقول الاستاذ عبدالرحمن العبيد: «عينين مصغر عين، والنسبة اليها عيناوي، وأغلب الروايات التي توردها المصادر العربية في العصر العباسي تفيد بأنها قرية عامرة ذات نخل.. ويفهم من كلام المتقدمين أن الموقع كان معروفا منذ أكثر من ألف سنة وعلى أنه من مياه العرب. وقد حلت محله كلمة جبيل في العهد التركي، واشتهر ذلك عن البحارة والغواصة في الجبيل وهم يرون الجبيل البحري والجبيل البري، فطغى هذا الاسم على مسمى (عينين).» ويقول الاستاذ حمد الجاسر مؤلف المعجم الجغرافي — قسم المنطقة الشرقية نقلا عن معجم البلدان: «قال ابو سعيد: عينين بالبحرين أيضا ماء من مياه العرب، وقال غيره: هو في ديار عبدالقيس، وهي البحرين واليه ينسب خليد عينين الشاعر». ويستطرد الاستاذ الجاسر فيقول: «وقال الازهري في (التهذيب): وبالبحرين قرية تعرف بعينين، واليها ينسب خليد عينين.»

وعن الأمم العربية التي عاشت عبر العصور الغابرة في هذا الموقع يحدثنا الاستاذ العبيد فيقول: «أول من سكن الشرق هم العمالقة، ذكر ذلك ابن الأثير في تاريخه. ومن العرب العاربة سكنت بكر وعبدالقيس وتميم، وقد تفرقوا في المنطقة وكان (عينين) لولد عبدالله بن دارام بن مالك من تميم. ويسكن الجبيل افراد من بني خالد وهؤلاء سكنوا في (الدفي) و(الأبيض) وهم يميلون الى الارتحال ويتركزون اليوم في عنك، ويختلف المؤرخون في موطنهم الاصلي، فمنهم من يعتقد أنهم جاؤوا من جنوب العراق، ومنهم من يعتقد أنهم قدموا مع الاتراك في القرن العاشر الهجري، والبعض منهم يرجح انهم جاؤوا قبل الاتراك وانهم من بني عقيل عامر. ومن افخاذ بني خالد: العماير، والصبيح، وبنو فهد، والمقدام، وآل بوعينين، والجبور، وآل رازان، وآل شاهين وغيرهم.



منظر جوي لمدينة الجبيل عام ١٩٥٨م.



لقطة جوية لمدينة الجبيل الصناعية.

ويعتبر عام ١٣٢٧هـ بداية لتأسيس الجبيل المعروفة حاليا، حينما نزح اليها جماعة من آل بوعينين فاستقروا بها ومارسوا فيها الغوص عن اللؤلؤ وصيد الأسماك، وشيدوا دورهم واقاموا مزارعهم. وفيما بعد انضم اليهم بعض العائلات النجدية والاحسائية التي مارست التجارة. وحول هذا الموضوع التقت «القافلة» بالشيخ ناصر مبارك عبدالله الخاطر، احد أعيان الجبيل، وحدثنا قائلا: «جاء آل بوعينين عام ١٣٢٧هـ الى الجبيل برئاسة الشيخ عبدالله بن علي الخاطر واخوانه عيسى ومحمد. ولم يكن في الجبيل آنذاك أي شيء ما عدا قصر صبيح في جلموده. وقد بنى آل بوعينين منازل لهم وبدأوا في ممارسة مهنة البحث عن اللؤلؤ والطواشة وصيد الأسماك. وكانوا يتاجرون باللؤلؤ في البحرين والهند.» ومن الرجال الذين مارسوا مهنة الغوص وتجارة اللؤلؤ كل من: عبدالله بن عبدالرحمن المسحل، وابراهيم السالم، وعلي بن احمد، ومحمد بن أحمد آل بوعينين، وسلطان بن راشد وغيرهم. كما اشتهرت الجبيل بعدد من النواخذة كآل ورثان وصالح بن نسيم وغيرهم.

وفي اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى ١٣٥٢هـ شهدت الجبيل ميلاد حقبة جديدة في تاريخ المملكة العربية السعودية، اذ قدمت اليها من البحرين الطليعة الاولى من جيولوجيي ارامكو مؤلفة من: روبرت بي. ميللر، و.د.ب. هنري، يرافقها كارل سي. تويتشل، ليساعدهما في بدء عمليات التنقيب عن الزيت. وكان هذا الأخير، قد قطع الجزيرة من جدة الى الساحل الشرقي بسيارتين لاستعمالها في أعمال التنقيب. يحدثنا احد رجال الأعمال البارزين في مدينة الخبر، الاستاذ أحمد حمد القصيبي، فيقول: «عندما وصلت أول فرقة للتنقيب عن الزيت في عام ١٣٥٢هـ استضافها والدي، رحمه الله، في منزلنا «برزان»، وبدأ الرجال في تجهيز ادواتهم ومعداتهم. وقد كنت حينئذ شابا يافعا.» وفيما بعد استخدم الجيولوجيون أول طائرة من نوع (فيرتشايلد) لأعمال المراقبة والتصوير الجوي لأغراض التنقيب في المملكة. ويوجد لهذه الطائرة مجسم صغير يزدان به سقف معرض ارامكو بالظهران. وقد أمضى هؤلاء الرواد قرابة عامين في الجبيل بحثا عن الزيت في المملكة. ارتحلوا بعدها الى الظهران، حيث انطلقت أعمال التنقيب عن الزيت فيما بعد من منطقة الظهران.

الجبيل والبحر

وكما عرفت الجبيل باللؤلؤ فقد اشتهرت كذلك بالسمك، حيث كان سمك الجبيل يضرب به الوصف في طيب طعمه ولذته خاصة سمك الكنعد. وكانت الجبيل فيما مضى تصدر السمك بكميات كبيرة الى أسواق القطيف ومنها يوزع الى باقي مدن المنطقة الشرقية. اما اليوم فقد قل صيد السمك في الجبيل، وأصبح يجلب الى اسواقها، بعدما كانت تصدره. وللتعرف الى أسباب هذا التراجع في كمية ونوعية الاسماك المستخرجة من بحر الجبيل، يحدثنا السيد بدر عيسى بوحبل، احد صيادي الأسماك، والذي أسندت اليه مهمة الاشراف على توزيع السمك في


جانب من ميناء الصيادين، والذي اعد لاستقبال جميع أنواع مراكب وسفن الصيد.


رافعتان عملاقتان تمثلان الامكانات الكبيرة التي وفرتها الدولة في موانىء الجبيل.


ميناء الجبيل عام ١٩٣٥م. ويظهر في الصورة بعض العمال وهم يفرغون حمولة احد المراكب.

احد الشوارع الجميلة في مدينة الجبيل.





صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز، أمير المنطقة الشرقية، يتابع المشاريع التي تنفذ في الجبيل.

سوق الجبيل منذ أكثر من ربع قرن من الزمن اذ يقول: «لا شك ان هناك فارقا كبيرا في كمية السمك المستخرجة من بحر الجبيل بين الماضي والحاضر. فقد كنا في الماضي نضع في البحر ٢٠ (قرقورا)، وهو عبارة عن قفص لصيد السمك بيضاوي او مستدير الشكل، ونصيد بها كمية كبيرة من السمك تزيد على حاجة سكان الجبيل بكثير. اما اليوم فان صيادي الجبيل يضعون ما يقرب من ٢٠٠ قرقور ولا يحصلون الا على كمية زهيدة جدا من السمك. والواقع ان أهم أسباب هذا الانخفاض في كمية السمك يعود الى ثلاثة أمور رئيسية: أولها تعرض بعض مراعي واماكن تكاثر السمك القريبة من الشواطىء لعملية الدفن. وثانيها قلة الخبرة لدى صيادي الاسماك الحاليين وذلك لعدم معرفتهم بأوقات تكاثر وتناسل السمك والربيان، بحيث يقومون بالصيد في أي وقت من العام. وثالثها عدم وجود عدد كاف من الصيادين المحليين العارفين بمسالك وأماكن تكاثر الأسماك.»

وقد شارك في هذا اللقاء السيد علي عبيد المدحاني، وهو من الصيادين المتمرسين في البحر والذي أضاف الى النقاط الثلاث السابقة قوله: «الحقيقة ان هناك موضوعا، اعتقد انه يؤثر سلبيا في عملية تكاثر الأسماك في الجبيل حاليا، وهو أن الصيادين الحاليين، والذين يستخدمون طريقة «السكار» وهي عملية نصب شباك كبيرة في عرض البحر وقت المد ليعلق بها السمك أثناء تنقلاته، لا يختارون الشباك ذات الفتحات الواسعة، بل يستخدمون شباكا ذات الفتحات الصغيرة والدقيقة مما يقضي على السمك الصغير. ناهيك عن الصيد بالشباك التي تجرها المراكب والتي تجرف في طريقها كل شيء وهذا بالتالي يؤثر على مراعي الأسماك.»



تتميز المناطق السكنية في مدينة الجبيل الصناعية بمبان حديثة وشوارع جميلة تزينها الزهور والأشجار.

والحقيقة أن الصيد الآن في الجبيل يتركز معظمه في المناطق البعيدة حول جزر جريد وجنة وابو علي وكران وكرين وغيرها، بعد أن كان الصيد قريبا من السواحل، التي أصبح الصيد في معظمها محظورا لوجود منشآت حكومية واقتصادية حيوية بالقرب منها. وليس في الجبيل نوعية من السمك يميزه عن بقية مناطق الساحل الشرقي للمملكة، ففي فصل الصيف يصاد القرقفان والصافي والبدح والسبيطي والبداح والعندق والحمام وغيره. وفي الشتاء يُصاد الكنعد والهامور والشعري والحمرا والسبيتي وغير ذلك من الأسماك الكبيرة الأخرى.

وقد عرف في الجبيل نواخذة سفن تجارية ونواخذة سفن صيد منهم من انتقل الى رحمة الله ومنهم من ترك مهنة الصيد. منهم عبدالرحمن المسحل، محمد عبدالله بن جاسم، ابراهيم السالم، علي بن محمد بن سعيد، علي بن غيث، محمد بن هلال، وغيرهم. اما صيادو الأسماك الحاليون فمنهم: علي محمد بن سعيد، محمد عبدالرحمن المسحل، احمد ابن علي المبارك، سعود وناصر وعثمان ابناء عبدالعزيز النجار، مبارك بن فهد الشاهين واولاده. ويبلغ عدد الصيادين المسجلين رسميا ٣٠٨ صيادين يزاولون صيد الأسماك بمختلف القوارب واللنجات. ويوجد لهذه القوارب واللنجات فرضة حديثة خاصة مزودة بجميع احتياجاتها، ولا تؤمها الا قوارب صيد السمك.



خصصت الهيئة الملكية للجبيل مرافق ترفيهية للاطفال في مدينة الجبيل الصناعية.



سعادة الاستاذ سيف بن سعد القحطاني، أمير الجبيل، يطلع «القافلة» على أهم المشاريع المنفذة في المنطقة.

الجبيل ركيزة الحضر

تعتبر الجبيل احدى الركائز الصناعية الضخمة، التي ستعتمد عليها الدولة، بعد الله، في تحقيق اقتصاد مستمر ومتنوع لمصادر الدخل القومي. وقبل أن ندلف الى مدينة الجبيل الصناعية التي تعتبر قلعة من قلاع الصناعة، لا بد وأن نلتقي ببعض المسؤولين في المدينة ليتحدثوا عن الخدمات والمشاريع الانمائية التي تشهدها الجبيل تحت قيادة حكومة خادم الحرمين الشريفين، ويتابعها بهمة ونشاط صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد بن عبدالعزيز، أمير المنطقة الشرقية.

البلدية

في مقر بلدية الجبيل التقت «القافلة» رئيسها المهندس محمد نافع النافع، الذي تحدث عن أهم الأعمال المنوطة بالبلدية والمشاريع المنفذة والتي قيد الدراسة والبحث الرامية الى تحسين وتطوير مستوى خدمات البلدية في مدينة الجبيل وما حولها من المناطق السكنية الأخرى. وقد خرجنا بمحصلة معلومات عن البلدية يأتي في طليعتها الاهتمام بنظافة المدينة وسفلتة وتشجير وانارة شوارعها. بالاضافة الى التخطيط لانشاء متنزه كبير بمساحة ١٤٤ الف متر مربع ليكون متنفسا لاهالي الجبيل، يزمع تنفيذه خلال السنوات القليلة القادمة. وقد التقينا في جولتنا هذه بالشيخ حسن عبدالله السلوم، أحد رؤساء البلدية السابقين فحدثنا قائلا: «تأسست البلدية عام ١٣٥٣هـ وكانت كل معدات البلدية آنذاك: حمار واحد يجمع عليه عاملان القمامة مرتين أو ثلاثا في اليوم، وكان ذلك العمل هو الشيء الوحيد الذي كانت تقوم به بلدية الجبيل. واتسعت اعمال البلدية ونما معها جهازها الاداري والفني حتى غدت على ما هي عليه اليوم.».

وكان لعدسة القافلة جولة في عدد من شوارع واحياء مدينة الجبيل، ويأتي صيد العدسة ليعكس لنا المستوى الراقي الذي وصلت اليه المدينة في كل قطاع من قطاعاتها المختلفة.

الصحة

قبل نحو ٣٢ عاما افتتحت وزارة الصحة مستشفى الجبيل، ويحتوي حاليا على قسمين رئيسين هما: قسم العيادات الخارجية للرجال — ويشتمل على عيادات العيون، والأسنان، والامراض الباطنية، والطب العام. وقسم العيادات الخارجية للنساء — ويشتمل على عيادات الاطفال، والنساء والتوليد، والأسنان، والطب العام. بالاضافة الى وحدة الاسعاف التي تعمل على مدار الساعة، وكذلك وحدة الأشعة والمختبر والصيدلية. كما يوجد كذلك قسم داخلي صغير يحتوي على سبعة أسرَّة للحضانة وغرفة عمليات للنساء والولادة. ويراجع جميع تلك العيادات عدد كبير من المرضى يوميا. ففي شهر جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ بلغ عدد المراجعين لجميع العيادات حوالي ١٢ ٤٠٠ مريض. ويعمل في المستشفى عدد من الأطباء والممرضين والممرضات واخصائيي الأشعة والمختبر والاحصاء والتغذية والمراقبة والمستخدمين وغيرهم بلغ عددهم ١٣٦ شخصا.

وقد تعاقدت المديرية العامة للشؤون الصحية بالمنطقة الشرقية في عام ١٤٠٣هـ على انشاء مستشفى الجبيل الجديد الذي انتهى العمل فيه، مؤخرا، ونفذ على مساحة ١٠ آلاف متر مربع تقريبا وبلغت تكلفته ٢١٢ مليون ريال. وهو مستشفى حديث ومجهز بجميع احتياجاته ويحتوي اقساما عديدة وأجهزة ومعدات وغرف عمليات ومباني اسكان للموظفين والعاملين فيه.



يتعهد مستشفى الجبيل حديثي الولادة برعاية فائقة.

التعليم

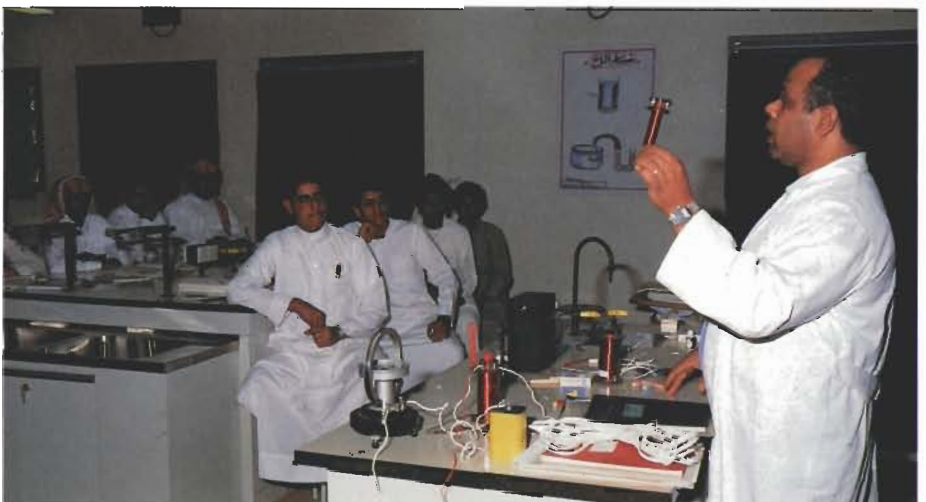
لقد سبق التعليم الأهلي التعليم النظامي الحكومي في الجبيل بمدة طويلة. وفي هذا الصدد يحدثنا الشيخ حسن عبدالله السلوم، احد مدرسي التعليم الأهلي الأوائل، فيقول: «لقد جئت الى الجبيل عام ١٣٤١هـ، وانخرطت في سلك التدريس في المدرسة الأهلية التي أسسها واشرف عليها الراحل سليمان بن حمد الكهلان، رحمه الله. وكان معي من المدرسين يومئذ محمد بن ضاوي ومحمد بن شريم وعبدالله الشبيعان وعبدالله التويجري. وكان الشيخ سليمان الكهلان رجلا متعلما وأديبا شغوفا بالشعر ويحفظ ديوان المتنبي كله. كما انه رحمه الله كان مدركا لأهمية



يوفر مستشفى الجبيل الحكومي الخدمات الصحية لجميع القاطنين بالمنطقة.



معمل اللغة الانجليزية من المعامل الحديثة المتوفرة لطلاب المرحلة الثانوية.



التعليم احدى الركائز الاساسية لبناء الانسان السعودي. ويظهر في الصورة طلاب مدرسة الملك فهد الثانوية يتابعون تجربة معملية يجريها احد الاساتذة امامهم.

التعليم حيث انه تلقى العلم في البصرة والزبير والاحساء.»

أما التعليم النظامي الحكومي فقد بدأ في المنطقة الشرقية عام ١٣٥٢هـ ويوجد في الجبيل حاليا خمس مدارس ابتدائية، اقدمها مدرسة الملك عبدالعزيز التي تأسست عام ١٣٥٧هـ ويدرس فيها جميعا حوالي ١٢٠٠ تلميذ. وهناك مدرسة متوسطة واحدة بها ٣٦٥ تلميذا، ومدرسة ثانوية واحدة فيها ٢٠٩ تلاميذ. وقد التقينا بالاستاذ عبدالعزيز صالح الصالح، مدير مدرسة الملك فهد الثانوية الذي ألقى الضوء على جانب من مسيرة التعليم في الجبيل.

تعليم البنات

بدأ تعليم الفتاة في الجبيل في الموسم الدراسي ١٣٨٢/ ١٣٨٣هـ حيث تأسست فيها المدرسة الابتدائية الأولى بعدد من الطالبات لا يتجاوز ثمانين طالبة. كما افتتح عام ١٣٨٧هـ أول معهد للمعلمات بلغ عدد طالباته اثنتي عشرة طالبة.

ومنذ تأسيس مندوبية تعليم البنات بالجبيل عام ١٣٩٦هـ وصل عدد المدارس في العام الدراسي ١٤٠٦/١٤٠٧هـ سبع مدارس ابتدائية ثلاث منها في المدينة الصناعية، وواحدة في منطقة تحلية مياه البحر، وثلاث في مدينة الجبيل. وقد بلغ مجموع طالبات تلك المدارس ٢١٣٩ طالبة. وهناك ثلاث مدارس متوسطة، واحدة منها في المنطقة الصناعية، بلغ عدد طالباتها ٥٦٨ طالبة. وهناك ثانويتان، احداهما في المنطقة الصناعية، تدرس فيها ٣٤٧ طالبة. أما مدارس رياض الأطفال فيوجد منها مدرستان الأولى لرياض الأطفال تدرس فيها ٥٤ طالبة، والثانية للحضانة كان فيها ١٨ طفلا وطفلة. ومن جانب آخر نظمت الرئاسة العامة لتعليم البنات فصولا دراسية لمحو الأمية في أربع مدارس التحق بها ٣٠٧ طالبات.

واستكمالا لمسيرة التعليم في الجبيل، فهناك مجهودات أخرى تقوم من جانب جمعية الجبيل الخيرية، التي تأسست عام ١٣٨٩هـ حيث انشأت دار حضانة وروضة للأطفال، وأيضا تقوم الجمعية بأعمال خيرية أخرى للأسر المحتاجة كالمساعدات الدائمة والموسمية، وتحسين المنازل وترميمها، وتقديم بعض المساعدات الصحية، وغير ذلك من المساعدات اللازمة الأخرى.

الزراعة

حققت المملكة العربية السعودية انجازا طيبا في المجال الزراعي، فانتشرت الشركات والمؤسسات المساهمة الزراعية، حيث وفرت في الأسواق المحلية كماً ضخماً من الخضراوات والفاكهة والحبوب، ووفرت بعضا من الفاكهة التي كان المواطن يتمنى رؤية اشجارها على أرضه وتراب وطنه.

وفي منطقة الفاضلي على بعد حوالي ٩٠ كيلومترا شمال غرب الجبيل، يمتد بساط أخضر، على امتداد البصر، تميزه الرشاشات المحورية، حيث يزرع القمح والشعير والخضراوات.. ذلك هو ما تقوم به شركة الشرقية للتنمية الزراعية التي باشرت نشاطها الزراعي عام ١٤٠٥هـ، وحدد موقع مشاريعها على ارض مساحتها ٦٠ ألف هكتار. وقد بدأت الشركة بتمهيد واعداد مساحة ٤٤٠٠ هكتار، في موسم عام ١٤٠٦هـ، زرعتها بالقمح والبطاطس فحصدت ٧٠٠٠ طن تقريبا من القمح، و١٥٠٠ طن من البطاطس.

وفي هذا الصدد حدثنا المهندس الزراعي عبدالرحمن محمد الثنيان، مدير عام الشركة عن المساعدات التي تقدمها الدولة للشركة والمشاريع المستقبلية المزمع انشاؤها، فقال: «الواقع أن حكومة خادم الحرمين الشريفين، ممثلة في وزارة الزراعة والمياه، تقدم دعما كبيرا ومشكورا للتنمية الزراعية في البلاد. فالدولة تمنح الأراضي الزراعية وتشتري القمح بسعر مجز ومشجع، وتقدم الارشادات والتوجيهات الفنية، بالاضافة الى الاستعانة بخبرات المركز الاقليمي



زهرات يتلقين مبادىء التعليم في احد فصول جمعية الجبيل الخيرية التي تقدم خدمات متعددة للمجتمع.



الشيخ حسن عبدالله السلوم، رئيس بلدية الجبيل سابقا.

للأبحاث الزراعية بالرياض. اما بالنسبة لمشاريع الشركة المستقبلية، فانها متعددة نذكر منها: بناء مستودعات تبريد لحفظ الخضراوات وانشاء وحدة لتجهيز وتصنيع البطاطس، واعادة دراسة مصنع أغذية الاطفال ودراسة الانتاج الحيواني (تربية وتسمين)، وغير ذلك من الأعمال.»

الحركة الرياضية

يعتبر نادي التآلف بالجبيل النادي الوحيد الذي يقوم بمهات وجهود دينية وثقافية ورياضية واجتماعية لتطوير شباب الجبيل. ولتلمس بداية الحركة الرياضية بالجبيل، وقبيل انشاء نادي التآلف كان هناك عدة فرق منها الشباب، الوحدة، السلام. وقد أدمجت تلك الفرق في فريق واحد اطلق عليه اسم «الطيران»، وفي عام ١٣٨٦هـ برز الى الوجود نادي التآلف والذي ما زال يقدم خدمات جلى لشباب المنطقة. وقد افتتح في سنة ١٤٠٠هـ مبنى النادي الجديد بمنشآته المختلفة وقد قامت ببنائه الرئاسة العامة لرعاية الشباب على مساحة تقدر بستة واربعين الف متر مربع، وبتكلفة تقرب من مائتي مليون ريال. وهو يضم ملاعب وصالات متعددة داخلية وخارجية لمختلف الألعاب الرياضية، بالاضافة الى المرافق الضرورية الأخرى كمكاتب الادارة والمسجد والمكتبة والمطعم. وجميع تلك المرافق مزودة بأفضل واحسن التجهيزات الضرورية اللازمة. ويمارس نادي التآلف بالجبيل جميع الأنشطة التي تمارسها بقية الأندية في المملكة رياضية ودينية وثقافية واجتماعية.

المواني

ليس هناك من شك في أن ميناء المدينة هو الرئة التي تتنفس بها، حيث يستقبل قوتها واحتياجاتها الضرورية، ويصدر انتاجها وخاماتها الى الدول الأخرى.. ناهيك عما تلعبه الموانىء من دور كبير في مجال المواصلات. وللجبيل ميناءان مهمان هما:

• **ميناء الجبيل التجاري**: وقد افتتحه الملك خالد ابن عبدالعزيز، رحمه الله، في ١٣٩٧/١١/١٧هـ. وهو يستقبل عددا من السفن التجارية التي تحمل المواد الغذائية والاسمنت والحديد والأخشاب والآليات وحاويات ذات بضائع مختلفة. وفي عام ١٤٠٦هـ استقبل الميناء ٣٠٠ سفينة ذات الغاطس ١٣.٢ مترا. ويتكون الميناء من ستة عشر رصيفا تتراوح أطوالها بين ٢١٢ مترا و٣٠٠ متر. ويتبع ذلك عدد من ساحات واماكن التخزين المكشوفة والمسقوفة لمختلف انواع البضائع، بالاضافة الى عدد من قوارب الارساء ذات قوة ١٥٠٠ و٢٥٠٠ حصان، ورافعات مختلفة الاغراض. ويخدم الميناء،



صورة لبعض ما تجود به أرض المملكة المعطاء من الحبوب والخضراوات. ويرى في الصورة جانب من مشروع شركة الشرقية للتنمية الزراعية في منطقة الفاضلي.



وفرت الرئاسة العامة لرعاية الشباب مرافق رياضية حديثة. ويظهر في الصورة فريق الكرة الطائرة بنادي التآلف يمارس افراده احد تمريناته.



الاستاذ مثنى عيسى القرطاس، مدير عام ميناء الملك فهد الصناعي يتحدث عن دور الميناء في مساندة الصناعة بالجبيل.



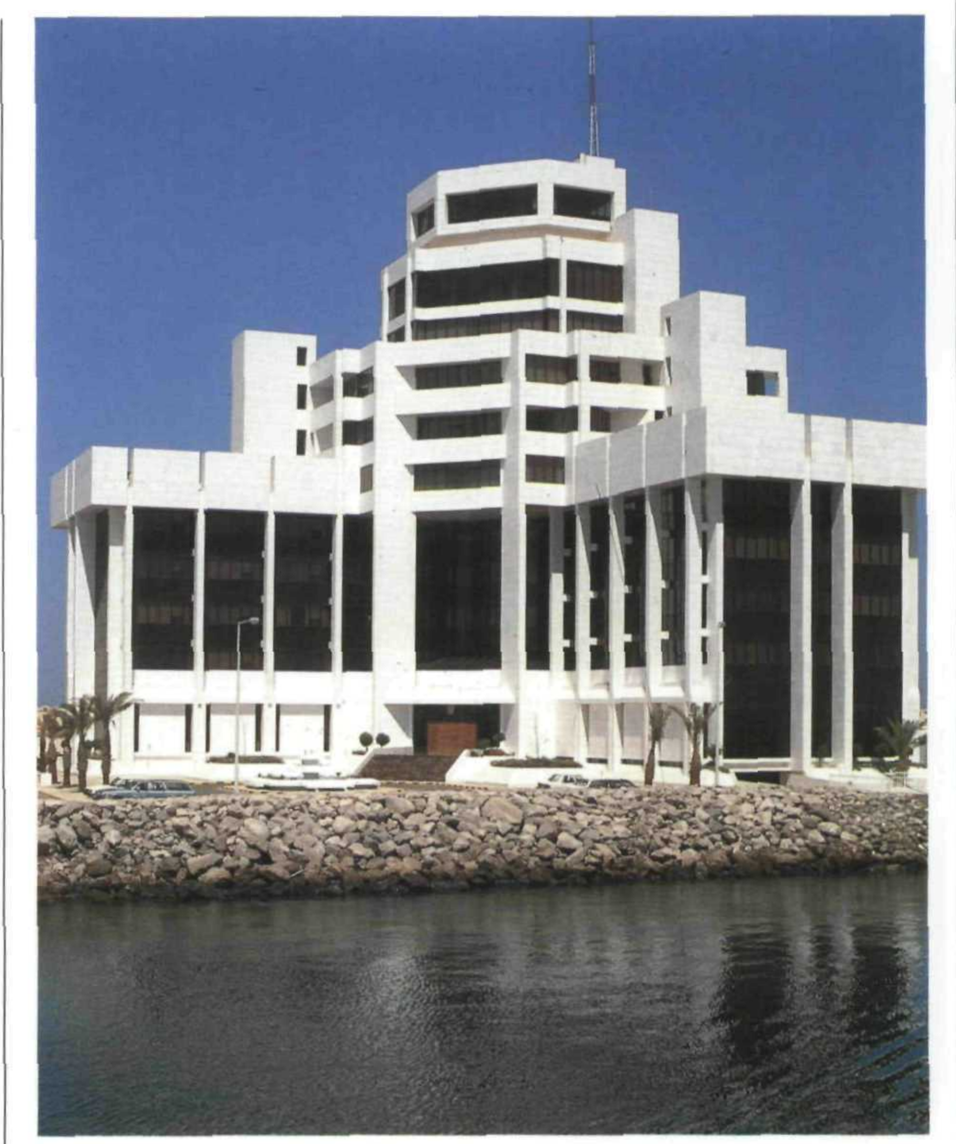
عميد بحري ركن سالم علي باربّان، قائد كلية الملك فهد البحرية بالجبيل، يتحدث الى كاتب السطور.

الذي يقع في المدينة الأم على مساحة ٧ ملايين متر مربع، جميع مناطق الجبيل والمنطقة الشمالية، كما يساند ميناء الملك عبدالعزيز بالدمام. ويضم ميناء الجبيل عددا من الادارات الرئيسية كالحركة والتشغيل والبحرية والمستودعات.

○ **ميناء الملك فهد الصناعي**: في الطرف الشمالي لمدينة الجبيل الصناعية يقع هذا الميناء الذي يعتبر بحق «نافذة على العالم»، حيث تصدر منه جميع المنتجات البتروكيميائية والبترولية واليوريا والكبريت، كما يستقبل العديد من احتياجات المصانع وأهمها خام الحديد لتصنيعه في مصنع شركة «حديد».

بدأ ميناء الملك فهد الصناعي —كما يقول مديره العام الأستاذ مثنى عيسى القرطاس— عمله في عام ١٤٠١هـ ويحتل مساحة خمسة ملايين متر مربع أقيمت عليها مرافق الميناء التي منها ٢٣ رصيفا لخدمة اغراض التصنيع، بطول يتراوح ما بين ٢٥٠ و٣٠٠ متر، وتصل السفن الى هذه الارصفة عبر قناة الاقتراب، والتي تمتد عشرات الأميال في مياه الخليج. وهذه القناة معززة بعوامات ومراقبة بواسطة الرادار على مدار الساعة. وتختلف أعماق أحواض القنوات الموازية للأرصفة، فمنها ما هو بعمق ستة أمتار، ومنها ما هو بعمق ١٤ مترا، والآخر بعمق ١٦ مترا. وهناك أربعة أرصفة في عرض الخليج مخصصة للناقلات الضخمة يبلغ عمق المياه فيها ٢٩ مترا.

وينقسم الهيكل التنظيمي والاداري للميناء الى سبع ادارات رئيسية يعمل بها نحو ٧٠٠ مهندس وموظف وعامل. وقد وصلت كمية المناولة في الميناء عام ١٤٠٦هـ نحو ١١ مليون و٢٠٠ الف طن، وامته ٥١٥ سفينة. وفي عام ١٤٠٧هـ بلغت المناولة أكثر من ١٧ مليون طن وأمته أكثر من ٦٥٠ سفينة.



مبنى الادارة العامة لميناء الملك فهد الصناعي الذي بدأ عمله عام ١٤٠١هـ.

كلية الملك فهد البحرية

انجاز حضاري، وكيان عملاق لتخريج رجال صدقوا ما عاهدوا عليه للذود عن حياض الوطن.. تلك هي كلية الملك فهد البحرية التي صدر قرار تأسيسها في ١٤٠٣/٧/٦هـ، وفتحت ابوابها امام الشباب السعودي للدراسة في الموسم الدراسي ١٤٠٥/١٤٠٦هـ لتقوم بدورها الهام لاكمال صرح بناء القوات البحرية السعودية.

وفي مقر قيادة كلية الملك فهد البحرية بالجبيل، التقت «القافلة» بعميد بحري ركن سالم علي باريان، قائد الكلية. وحول سؤال عن مستوى الدراسة والكفاءة في الكلية، أجاب قائلا: «بفضل الله ثم بالرعاية والاهتمام والدعم المتواصل من خادم الحرمين الشريفين القائد الأعلى للقوات المسلحة، وصاحب السمو الملكي ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء، وصاحب السمو الملكي وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، وصاحب السمو الملكي نائب وزير الدفاع والطيران.. وصلت القوات البحرية الى المستوى الذي تستطيع فيه أن تعتمد على قدرات وكفاءة ابنائها في مجالات التعليم والتدريب بمختلف درجاته. والآن أصبحت الكلية كيانا حيا ينبض بالحياة والوجود. والطلبة فيها هم أوفر حظا ممن درسوا في الخارج، حيث الدراسة هنا تنبع من واقعنا.».

تتبع كلية الملك فهد البحرية نفس نظام الكليات العسكرية، وتكون الدراسة فيها مدة ثلاث سنوات وهي على ثلاث مراحل: اعدادي، ومتوسط، ونهائي. وتنقسم السنة الدراسية الى فترتين مدة كل منها حوالي ١٥ أسبوعا. ويتبع الطلاب في دراستهم مناهج نظرية وتدريبية ذات مستويات عالية روعي فيها متطلبات العصر ليتمكن الطالب من التعامل الصحيح مع مختلف الأجهزة العلمية المتوفرة على كل من سفن القوات البحرية وفي مختلف مدارسها ومرافقها. كما وضع في الاعتبار ادخال العلوم العصرية وتحديثها أولا بأول، بالاضافة الى العلوم الدينية التي تسير جنبا الى جنب مع العلوم الأخرى اثناء الدراسة.

وفي نهاية الدراسة بالكلية يتخرج طلابها ضباطا اكفاء قادرين على اداء المهام المطلوبة منهم، بعد أن تم تزويدهم بالعلم الذي يساعدهم بعد الله في القيام بواجبهم الوطني. وقد استقبلت الكلية في سنتها الأولى عددا مناسبا من الطلبة من مختلف مناطق المملكة. ومن المنتظر أن يزداد الاقبال في السنوات القادمة.

محطات تحلية المياه المالحة

الى الجنوب من مدينة الجبيل، بحوالي ١٥ كيلومترا، اقامت المؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة مشروع محطات التحلية في الجبيل، على مساحة تقدر بعشرة كيلومترات مربعة، على شريط ساحلي باتجاه الخليج العربي بطول سبعة كيلومترات. وقد التقت «القافلة» بالاستاذ احمد محمد المديهيم، مدير عام



كلية الملك فهد البحرية انجاز حضاري وكيان عملاق لتخريج رجال أكفاء للذود عن حياض الوطن.



تنتج محطات التحلية في الجبيل ٢٤٠ مليون جالون من المياه المحلاة يوميا، منها ٣٠ مليون جالون لمنطقة الجبيل، والباقي يضخ لمدينة الرياض. بالاضافة الى ذلك تولد المحطات ما مقداره ١٤٥٠ ميجاوات من الكهرباء.



العاملون يتابعون سير عمليات ضخ المياه وتوليد الكهرباء في محطات التحلية من خلال غرفة المراقبة.

فرع المؤسسة بالمنطقة الشرقية بالنيابة، الذي تحدث عن مراحل التأسيس والانتاج في هذا المشروع الحيوي الهام. والجدير بالذكر ان هذا المشروع ينقسم الى مرحلتين: المرحلة الأولى وتتكون من ست وحدات طاقة كل منها خمسة ملايين جالون من المياه المحلاة يوميا، وبتوليد ٥٠ ميجاوات من الكهرباء، أي بطاقة اجمالية تبلغ ٣٠ مليون جالون من المياه و٣٠٠ ميجاوات من الكهرباء. وتغذي هذه المرحلة، التي بدأت الانتاج عام ١٤٠٢هـ مدينة الجبيل، والقاعدة البحرية، والهيئة الملكية والتي بدورها تغذي المنطقة الصناعية عبر خط انابيب مزدوج.

أما المرحلة الثانية فقد بدأ تشغيلها في ١٤٠٣هـ وتعمل بطاقة انتاجية يومية تبلغ ٢١٠ ملايين جالون من المياه المحلاة و١١٥٠ ميجاوات من الكهرباء، وذلك عن طريق أربعين وحدة تحلية واثنتي عشرة وحدة لتوليد الطاقة الكهربائية. ويضخ معظم انتاج هذه المرحلة الى مدينة الرياض عبر خط انابيب مزدوج طوله ٤٦٠ كيلومترا وقطره ١٥٠ سنتمترا.

ويتبع مشروع محطات الجبيل عدد من المنشآت والمحطات الصغيرة منها:

- سبعة خزانات سعة كل منها ٣٠ مليون جالون.
- محطات خلط في مدينة الجبيل والقاعدة البحرية والهيئة الملكية وفي مكان المشروع نفسه.
- محطة معالجة كيميائية لانتاج المواد الكيميائية اللازمة لتنقية الماء.
- قناة صرف شقت وسط المشروع لتصريف الماء الرجيع.
- مجمع سكني يضم وحدات سكنية ومدارس ووحدات صحية ونوادي ترفيهية ومساجد.



الشيخ ناصر مبارك الخاطر، احد اعيان الجبيل، يتحدث عن تأسيس الجبيل عام ١٣٢٧هـ.

المؤرخ الأستاذ عبدالرحمن عبدالكريم العبيد، من ابناء الجبيل ومن المهتمين بالقضايا التراثية والادبية، يتحدث عن تاريخ الجبيل.

الآثار في الجبيل

عرفنا في صدر هذا الاستطلاع أن منطقة الجبيل كانت مهدا لحضارات سابقة سادت ثم بادت. وتبعا لذلك فلا بد أن يوجد فيها مواقع أثرية تحكي جزءا من تلك الحضارات والأمم التي استوطنت هذه الأرض.

وتظهر لنا دراسة اعدها المتحف الاقليمي بالدمام عن مواقع الجبيل الأثرية، ان هذه المنطقة غنية بمواقعها الأثرية التي تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث. وقد عينت بعثة المسح الأثري سبعة وثلاثين موقعا أثريا، منها عشرة مواقع موثقة تخص حضارة العبيد التي عاشت في جنوب العراق في فترتين، أولاهما وتعرف بمرحلة (اريدو) ما بين ٥٣٠٠ و٥٠٨٠ قبل الميلاد. وثانيهما تعرف باسم (حجي محمد) وهو اسم لتل في العراق وتمثل الفترة من ٥٠٨٠ الى ٤٣٤٠ قبل الميلاد.

وقد قامت الادارة العامة للمتاحف والآثار بتحديد المواقع الأثرية في الجبيل، وسورتها لحمايتها، وأصبحت من المعالم السياحية وهي: «جزيرة الباطنة»، و«سبخة مرير» في شمال الجبيل،

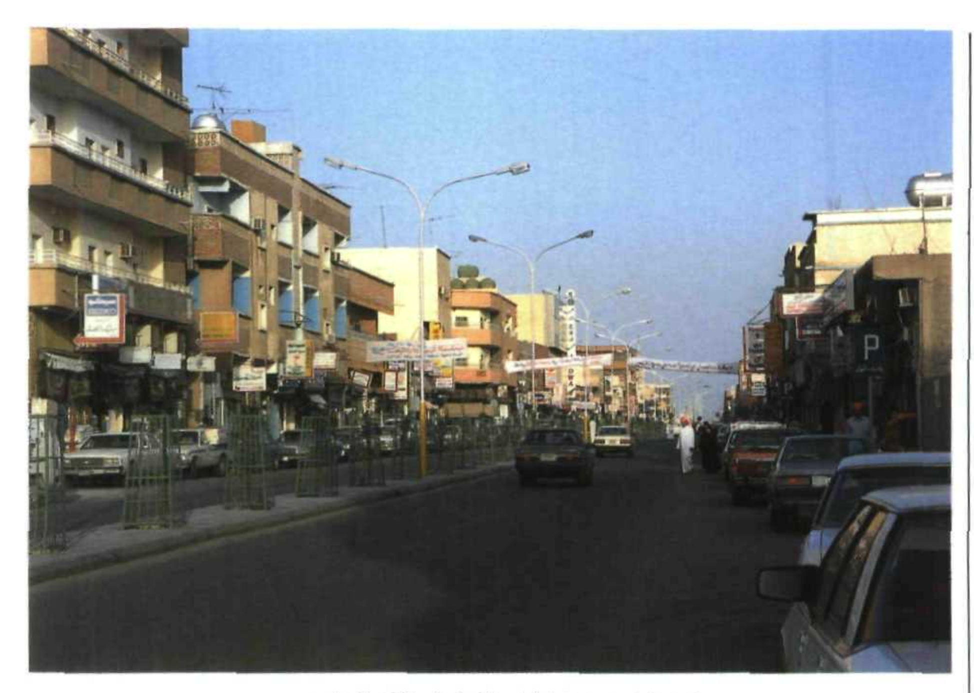


صورة عمرها اثنان وخمسون عاما يشاهد فيها مجموعة من المواطنين يتعاونون على اخراج طائرة من حظيرتها. وهذه الطائرة استخدمتها ارامكو لاعمال التنقيب

و«الدوسرية» وتقع جنوب الجبيل وأجريت فيها دراسة عن مواقع العبيد، وهو أول موقع عبيدي اكتشف في المملكة عام ١٩٦٨، و«رأس الزور» بجنوب الجبيل ويعتبر منطقة أثرية مهمة متصلة بعضها بالبعض الآخر حيث تصل الى منطقة الخفجي على طول الساحل[1]. كما شمل المسح كذلك جميع المناطق الممتدة من «سبخة الرياس» جنوبا الى جزيرة «أبو علي» شمالا، وتتبع اماكن ومراكز الصيد والمرافىء الصغيرة الممتدة من الظليفين ورأس باسط والحويلات، بالاضافة الى خط أنابيب التابلاين والبري غرب الجبيل، ومنطقة أبو شريف والمباركية والعبا. وقد أمكن تحديد تلك المناطق جميعا على خريطة خاصه للمسح.

ومن المناطق الأثرية الأخرى التي تزخر بها منطقة الجبيل، منطقة «الطوية» التي تبعد عن المدينة الأم حوالي كيلومتر واحد أو يزيد قليلا. «ومنطقة الطوية عبارة عن مسطح رملي، وهي منطقة واسعة يكثر فيها الكسر الفخارية الاسلامية الطابع المزججة والمزخرفة هندسيا. وقد أمكن العثور على جرة فخارية تعود للفترة الاسلامية المبكرة. وربما كانت هذه المنطقة مركزا تجاريا او مناخا للتجار القادمين او المارين بمركز الجبيل (المدينة القديمة). وعلى الرغم من العدد الهائل

(١) راجع «القافلة» جمادى الأولى ١٤٠٧هـ.



احد شوارع مدينة الجبيل المؤدية الى المركز التجاري.



المهندس محمد نافع النافع، رئيس بلدية الجبيل.



منظر عام لمدينة الجبيل حيث مركز الامارة ومعظم الادارات الحكومية.

شارع حديث يعكس الجهود المبذولة لتطوير المدن في المنطقة.

من الفخاريات في تلك المنطقة الا انها تكاد تكون خالية من اساسات المباني والتلال التراكمية. ومما يؤكد كونها مناخا وجود بئر ماء وبرج مراقبة لا زال قائما بني في عهد الملك عبدالعزيز، رحمه الله. وهذا البرج يعتبر بمثابة مركز حماية ومراقبة للجبيل من القادمين اليها. يحتل مساحة ٣٤ مترا مربعا ويتكون من دورين ومبني على بئر ماء بقطر سبعة أمتار تقريبا[٢]».

الأدب في الجبيل

يقول الاستاذ عبدالرحمن العبيد: «ليس في الجبيل شعراء لهم ذكر في كتب التاريخ سوى الشاعر «خليد عينين» وهو «الصلتان العبدي» واسمه قثم ابن خبية، وهو أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن افصى بن عبدالقيس، شاعر مشهور سليط اللسان[٣]. ومن شعره قوله:

أشاب الصغير وافنى الكبير كرّ الغداة ومر العشي
اذا هـزمت ليـلـة يومهـا
اتى بـعـد ذلك يوم فتي
نـروح ونـغـدو لحاجـاتـنـا
وحاجة من عاش لا تنقضي

ويوجد من المعاصرين المعروفين شاعران هما: ثاني ابن منصور البوعينين، وله شعر مخطوط، وعبدالرحمن عبدالكريم العبيد، وله ديوان شعر بعنوان «في موكب الفجر»، وله كتب أخرى منها «الأدب في الخليج العربي»، «أصول المنهج الاسلامي»، «قبيلة العوازم». بالاضافة الى المقالات الأدبية والفكرية التي ينشرها في الدوريات المحلية.

والاستاذ عبدالرحمن العبيد، من الشعراء الذين تغنوا ببلدة الجبيل، حيث يقول في قصيدة له بعنوان «أنا يا بلدتي الجميلة».:

أنا يا بلدتي رضعت هـواك
وعشقت الجمـال في مغناك
فضياء الصباح يغمـر قلبـي
هو —لو تعلمين— نفح صبـاك
ونشيـد المساء عانق حلمـي
فاذا الحلـم قبسة من سناك
قد رأيت الجمال في كل روض
غير أن الجمال مـلء حمـاك

(٢) «تقرير عن مواقع أثرية في الجبيل» لأمين المتحف الاقليمي بالدمام.

(٣) «تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد»، ص/٣٠٦.



المهندس احمد ابراهيم المبارك، مدير عام مشروع الجبيل يتحدث عن أهداف وخطط الهيئة الملكية للجبيل.



جانب من مصنع الشركة السعودية للحديد والصلب (حديد)، وهو من المصانع العملاقة في الجبيل.

الجبيل أمل المستقبل

يعتبر عام ١٣٩٥هـ عاما مشهودا، اذ كانت منه الانطلاقة في تغيير التركيبة الاقتصادية والسكانية في منطقة الجبيل.. ففي ذلك العام صدر المرسوم الملكي الخاص بتأسيس الهيئة الملكية للجبيل وينبع، والتي أنيطت بها مسؤوليات ومهام تخطيط وانشاء وادارة التجهيزات الاساسية اللازمة لتطوير وتشغيل مدينتي الجبيل وينبع الصناعيتين. وقبل أن نتحدث عن أهم الصناعات التي تحتضنها مدينة الجبيل لا بد أن نطّلع على دور هذه الهيئة، حيث التقينا بالمهندس احمد ابراهيم المبارك، مدير عام مشروع الجبيل، الذي أوجز اهداف وخطط الهيئة فقال: «يتمثل دور الهيئة الملكية في دعم الاستثمار في مجال الصناعات الاساسية والثانوية والمساندة والخفيفة، وفي تطوير المؤسسات التي توفر الخدمات المدنية، وفي تنفيذ وتطوير برامج تدريبية للشباب السعودي للوصول بهم الى أرقى مستوى من المهارات. وتعمل الهيئة الملكية، ومقرها الرئيسي مدينة الرياض، كهيئة مستقلة تحت رعاية ورئاسة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، يرأسها بالنيابة معالي الاستاذ هشام محي الدين ناظر، وزير البترول والثروة المعدنية وزير التخطيط بالنيابة.

مدينة الجبيل الصناعية

الى الشمال الغربي من مدينة الجبيل تقع مدينة الجبيل الصناعية وهي تحتل مساحة تزيد على الف كيلومتر مربع، نصفها مخصص للصناعات الاساسية ومرافق التجهيزات الاساسية. والى الشمال من منطقة الصناعات توجد المنطقة السكنية وهي تقع في شبه جزيرة تطل على الخليج العربي بشاطىء طوله ٤٦ كيلومترا، وتتخللها مناطق واسعة ومفتوحة من البساط الأخضر. وهي تضم مراكز النشاط الاجتماعي والتجاري والاداري، بالاضافة الى المرافق الأخرى كالمستشفيات والمدارس. وتنقسم الى ثمانية أحياء رئيسية هي: الحويلات، الفناتير، الدفي، الفصل، جلمودة، مردومة، اللؤلؤ، الشاطىء. وكل حي مقسم الى أربع أو خمس حارات، وكل حارة تحتوي على مركز تجاري متكامل، ومسجد، ومدارس، وملاعب للأطفال. ويبلغ عدد سكان المنطقة الصناعية حوالي ٣٥ ألف نسمة.



صورة لمصنع الشركة الشرقية للبتروكيماويات (شرق) التي تنتج جلايكول الايثلين والبوليثيلين منخفض الكثافة.

ومما يلفت نظر الزائر لمدينة الجبيل الصناعية انتشار الأشجار والزهور والمسطحات الخضر بشكل واسع. وقد تمت زراعة أكثر من ١٠٠ الف شجرة يزيد ارتفاع الواحدة منها على مترين، وأكثر من مليون ونصف شجرة صغيرة، بالاضافة الى حوالي ٧٥٠ الف متر مربع من الحشائش والأعشاب.

وتوفر الهيئة الملكية خدمات صحية للقاطنين بالمنطقة، وذلك من خلال مستشفى كبير في حي الحويلات بسعة ٢٠٥ أسرّة، وتسعة مستوصفات في الأحياء الأخرى. وتقوم الهيئة بتطوير مستشفى حي الفناتير بسعة ٢٠٠ سرير، ومستشفى حي الدفي بسعة ٣٠٠ سرير.

ويقدم مطار مدينة الجبيل الصناعية خدمات النقل الجوي للهيئة الملكية وسابك والسفريات الأخرى. ويبلغ طول مدرج المطار ٤٠٠٠ متر ويمكنه استقبال طائرات تجارية كبيرة. ويضم المطار مرافق متعددة منها صالة الركاب ومحطة الشحن الجوي ومبنى الخدمات والمرافق المساندة الأخرى.

الصناعة في الجبيل

يرتكز التصنيع في المملكة العربية السعودية بوجه عام، وفي الجبيل بوجه خاص، على أربعة أنواع من الصناعات الرئيسية المختلفة هي: الصناعات الاساسية، والصناعات الثانوية، والصناعات المساندة، والصناعات الخفيفة. وقد قامت الهيئة الملكية للجبيل بتجهيز المواقع اللازمة لجميع أنواع الصناعات.

- **الصناعات الاساسية**: وهي صناعات تعتمد

على استغلال الطاقة أو تصنيع النفط. ويوجد من هذا النوع حوالي عشرين صناعة اساسية تتبع المؤسسة العامة للبترول والمعادن (بترومين) أو الشركة السعودية للصناعات الاساسية (سابك) أو (ارامكو)، وغيرها من الشركات الأخرى.

ويبين الجدولان الظاهران على هذه الصفحة أهم الصناعات الأساسية.

• **الصناعات الثانوية:** وهي صناعات تقوم على استخدام منتجات الصناعات الاساسية كمواد أولية لتصنيع منتجاتها. والغرض الاساسي من الصناعات الثانوية هو أن تشكل هذه الصناعات حلقة وصل بين منتجات الصناعات الاساسية والتي تستخدمها كمواد خام لانتاج المواد والسلع اللازمة لدعم الاقتصاد الوطني بالمملكة، وتحقيق المعايير التالية:

- استعمال الموارد المحلية المتاحة.
- توفير البدائل للمواد المستوردة.
- تطوير المنتجات السعودية لتصديرها للخارج.
- توسيع القطاع الصناعي بالمملكة.
- تركيز الانتاج بالاعتماد على رأس المال.
- الاستغلال الأمثل للمناطق المخصصة للمصانع والاستفادة من التجهيزات الاساسية.

• **الصناعات المساندة والخفيفة:** وهي الصناعات التي تقوم بانشائها مؤسسات وشركات القطاع الخاص لانتاج وايجاد البضائع أو السلع، او توفير الخدمات التي تحتاجها الصناعات الاساسية والثانوية، بما في ذلك احتياجات المناطق السكنية. وقد دخلت ٥٠ صناعة من هذا النوع مرحلة الانتاج منذ نهاية شهر ذي الحجة ١٤٠٤هـ. ومن جانب آخر، تم اعتماد اتفاقيات تأجير لأربع وعشرين صناعة سائدة، شرعت بعضها في عمليات الانشاء. ويتوقع أن يزداد مثل هذا النوع من الصناعات مستقبلاً.

تدريب القوى العاملة

لا شك أن أي صناعة تحتاج الى عنصر اساسي لتسييرها وهو اليد العاملة المدربة. ومن هذا المنطلق اهتمت الهيئة الملكية بالجبيل بتطوير وتدريب العنصر البشري، فقامت بانشاء معهد مكتمل لاعداد القوى البشرية في شهر رمضان ١٤٠٣هـ. ويتوقع أن يخرج هذا المعهد حوالي ١٢٠٠ متدرب كل عام، وذلك لتغطية احتياجات المصانع في مختلف التخصصات المهنية اللازمة لرفع كفاءة وقدرة الأيدي العاملة السعودية بمصانع الجبيل. ويعمل المعهد حاليا على التنسيق المباشر مع الصناعات المختلفة للتعرف الى احتياجاتها الفعلية من المتدربين ليتم تدريبهم على هذا الأساس.

أرامكو والصناعة في الجبيل

لقد أودع الله سبحانه وتعالى أرض المملكة العربية السعودية، كنوزا دفينة، منها وأهمها البترول والغاز حاليا. وكان هذا الأخير قبل سنوات، يذهب هدرا.

شركات بترومين

اسم الشركة	نوع الصناعة	تاريخ بدء الانتاج	المنتجات الاساسية
ارامكو/ بترومين	صهر الكبريت وتصديره	١٤٠٤هـ	مواد الكبريت المصهورة.
شركة مصفاة بترومين/ شل/انترناشونال	المصفاة رقم ١	١٤٠٥هـ	زيت الوقود، النفثا، زيت الغاز الكيميائي.
مصنع الجبيل لمزج زيوت التشحيم	مصنع زيوت التشحيم	١٤٠٦هـ	زيوت تشحيم متنوعة.
بتمارك	مصنع المواد السائبة	١٤٠٧هـ	بيع وقود السفن، الديزل، الجازولين البنزين ووقود الطائرات النفاثة.
مصفاة الجبيل لزيوت التشحيم (شيفرون/تكساكو)	المصفاة رقم ٣		زيوت تشحيم، الشمع، الاسفلت.

شركات سابك

اسم الشركة	نوع الصناعة	تاريخ بدء الانتاج	المنتجات الاساسية
الشركة السعودية للحديد والصلب (حديد) بالمشاركة مع المؤسسة الالمانية للتنمية.	مصنع الحديد والصلب	١٤٠٢هـ	قضبان واسياخ التسليح.
الشركة السعودية للميثانول (الرازي) بالمشاركة مع متسوبيشي للغازات الكيماوية (اليابان).	مصنع الميثانول (٢)	١٤٠٣هـ	الميثانول الكيماوي.
شركة الجبيل للأسمدة (سماد) بالمشاركة مع شركة تايوان للأسمدة.	مصنع الأسمدة (٢)	١٤٠٣هـ	اليوريا.
الشركة الوطنية للغازات الصناعية (غاز) بالمشاركة مع ٧ شركات من القطاع الخاص.	مصنع الغازات الصناعية	١٤٠٤هـ	غاز الاوكسجين وغاز النيتروجين السائلان.
الشركة الوطنية للميثانول (ابن سينا) بالمشاركة مع شركتي سيلانيز وتكساس ايسترن الامريكيتين.	مصنع الميثانول (١)	١٤٠٤هـ	ميثانول (ومستقبلا خلات الفينيل وحامض الخليك وغليكول الاثيلين).
الشركة السعودية للبتروكيماويات (صدف) بالمشاركة مع شركة شل الامريكية.	معمل البتروكيماويات (١)	١٤٠٤هـ	الايثلين، الصودا الكاوية، الايثانول الخام، الستايرين، ثاني كلوريد الاثيلين.
شركة الجبيل للبتروكيماويات (كيميا) بالمشاركة مع شركة اكسون.	معمل البتروكيماويات (٣)	١٤٠٤هـ	البولي ايثلين منخفض الكثافة.
الشركة العربية للبتروكيماويات (بتروكيميا).	معمل البتروكيماويات (٢)	١٤٠٥هـ	الايثلين، جولي ستايرين، بيوتين — ١.
الشركة الشرقية للبتروكيماويات (شرق) بالمشاركة مع شركة ميتسوبيشي للبتروكيماويات.	معمل البتروكيماويات (٤)	١٤٠٥هـ	جلايكول الايثلين والبوليثيلين منخفض الكثافة.
الشركة الوطنية للبلاستيك (ابن حيان) بالمشاركة مع لاكي قروب، كوريا.	مصنع كلوريد الفينيل	١٤٠٦هـ	كلوريد الفينيل الاحادي، وكلوريد الفينيل المتعدد.
مشروع سابك/ سافكو للأمونيا.	مصنع الأسمدة (١)	١٤٠٧هـ	الأمونيا.
الشركة الاوربية للبتروكيماويات (ابن زهر).	مصنع لانتاج البيوتين وبيوتال الاثير الثلاثي الميثيلي والبيوتيدايين	١٤٠٨هـ	بيوتال الاثير الثلاثي الميثيلي.

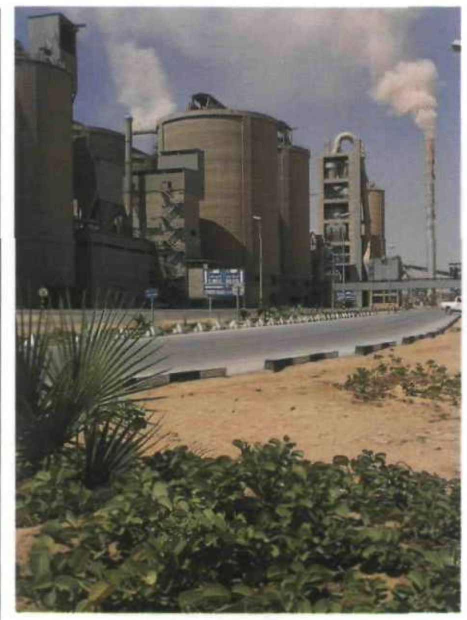


مبنى تدريب القوى العاملة بمدينة الجبيل الصناعية، من المرافق التي تقوم بدور كبير في دعم الصناعة هناك.

اما اليوم، وبعد النقلة الحضارية التي تعيشها المملكة، وخاصة في المجال الصناعي، فان الغاز يشكل عمودا فقريا جديدا لدعم المسيرة الصناعية في البلاد لتنويع مصادر الدخل. ولالقاء نظرة سريعة على جزء من مشروع شبكة الغاز الرئيسية في الجبيل، وهو مشروع يوفر غاز الوقود للصناعات المحلية والمادة الخام للمعامل البتروكيميائية في الجبيل وغيرها، والبروبان والبوتان للتصدير، التقينا بالمهندس حسن عبدالله يماني، مدير عام دائرة خطوط الأنابيب في ارامكو ليحدثناعن دور ارامكو في تغذية مشاريع الجبيل بالغاز، فقال: «لقد أصبح الغاز، اليوم، اساسا كالزيت تماما. حيث كان الغاز، في السابق، مصاحبا للزيت. اما اليوم وبعد توفيق الله، تمكنت ارامكو من اكتشاف الغاز في مكمن «خف» على عمق يتراوح ما بين ١٤ الى ١٥ الف قدم. وبعد استخراج الغاز وتنقيته من الشوائب يدفع في شبكة خطوط خاصة من العثمانية وشدقم، ثم يتحد مع الغاز القادم من



المهندس حسن عبدالله يماني، مدير عام دائرة خطوط الأنابيب في ارامكو، يلقي الضوء على دور ارامكو في تغذية مشاريع الجبيل الصناعية بالغاز.



الشركة السعودية الكويتية لصناعة الاسمنت، مشروع مشترك يجسد ترابط وتلاحم دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

السفانية، في شبكة الغاز الرئيسية، ومن ثم يدفع في خطين منفصلين بقطر ٩٠ سنتمترا و ٧٥ سنتمترا الى المصانع المستهلكة له في الجبيل. كما يوجد خط ثالث للزيت الخام يغذي مصفاة بترومين/شل بحوالي ٢٧٠ الف برميل في اليوم».

والواقع ان ضخ الغاز الى مصانع الجبيل قد بدأ عام ١٩٨١، بعد استكمال مشروع تجميع الغاز في منتصف السبعينات،أي بعد حوالي اربع سنوات من العمل المضني والشاق. ويوجد حاليا حوالي ١٤ مصنعا في الجبيل تستخدم الغاز الذي تنتجه ارامكو إما كمادة خام للصناعات او كوقود لتشغيل الآلات والمصانع. كما أن هناك خطا آخر يغذي معمل التحلية في الجبيل التابع للمؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة.

وينقسم الغاز الذي تضخه ارامكو الى زبائنها في الجبيل الى نوعين: غاز الوقود، وهو الميثان، وتستخدمه ١٢ شركة لتشغيل معداتها،أو يدخل ضمن اغراض التصنيع، ويستهلك منه ما بين ٣٠٠ الى ٤٠٠ مليون قدم مكعب في اليوم في هذا المجال. اما الغاز الثاني فهو الايثان وتستخدمه شركتان كمادة خام لصناعاتها بمعدل ١٢٠ و١٥٠ مليون قدم مكعب في اليوم. وهذا الغاز الأخير ذو حرارية عالية. ومما يجدر ذكره ان الغاز يدفع الى الجبيل تحت ضغط معين لا يقل عن ٣٠٠ رطل على البوصة المربعة، وذلك للمحافظة على عمر الأجهزة والمعدات ولكي يكون لها استمرارية العمل مدة أطول.

وفي اكتوبر الماضي بدأ تشغيل واحد من أكبر معامل انتاج حبيبات الكبريت وتصديرها في العالم. وقد انشأته ارامكو في ميناء الجبيل الصناعي، وهي تقوم الآن بتشغيله. وبامكان هذا المعمل، الذي يتغذى عبر خط من البري، انتاج ٤٠٠٠ طن متري من حبيبات الكبريت في اليوم.

الشركة السعودية - الكويتية لصناعة الاسمنت

انه مشروع سعودي كويتي مشترك، يجسد قوة الترابط والتلاحم بين حكومات وشعوب مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ويقوي اقتصاد المنطقة، ويوفر فرص عمل مساندة لابناء الخليج.

تلك هي الشركة السعودية الكويتية لصناعة الاسمنت التي تأسست عام ١٤٠٣هـ برأس مال مدفوع بلغ ٦٤٥ مليون ريال سعودي. ويقع المصنع في منطقة الخرسانية على طريق ابو حدرية وعلى بعد ١٣٥ كيلومترا من مدينة الدمام. ويعتبر هذا المصنع من أكبر مصانع الاسمنت في المملكة واحدثها في العالم.

وفي موقع المشروع تحدث الاستاذ عثمان فهد الجندان، مدير الشؤون الادارية والموظفين قائلا: «وضعت الشركة ثلاثة أهداف رئيسية لتحقيق اغراضها من هذا المشروع تتمثل في اقامة مشروع لانتاج المادة الاساسية لصناعة الاسمنت بأنواعه المختلفة، واقامة معامل أو مصانع تكون مكملة لصناعة الاسمنت، والقيام باستيراد وتصدير جميع مواد البناء والاسمنت والمنتجات أو المواد المرتبطة بها،سواء داخل المملكة والكويت أو خارجها. وتبلغ طاقة المصنع الانتاجية ٧٠٠٠ طن من الكلنكر — Clinker، وهو مجموعة المواد الاساسية المكونة للاسمنت قبل طحنها، ويطحن منها ما بين ٤٠٠٠ الى ٤٥٠٠ طن اسمنت يوميا، والباقي يصدر الى شركة اسمنت الكويت.».

ويعتمد المصنع في انتاج مادة الاسمنت على ثلاث مواد خام رئيسية، ومادتين اضافيتين. فتتكون المواد الاساسية من الحجر الجيري والرمل والطين أو الصلصال. اما المادتان الاضافيتان والمساعدتان فهما حجر البوكسيت وخام الحديد. ويستخدم المصنع لحرق وخلط هذه المواد فرنين بطاقة ٣٥٠٠ طن يوميا للفرن الواحد. ويتم تبريد الخليط في أربع صوامع كبيرة بسعة ٤٠٠٠٠ طن لكل صومعة. وتستخدم الشركة أحدث أجهزة الفحص بالأشعة السينية في مناطق مختلفة على طول خط الانتاج، اضافة الى المختبر المركزي للجودة النوعية بغرض التأكد من مطابقة المنتج للمواصفات السعودية والعالمية.

وبعد، فقد كان ذلك المصنع هو آخر المطاف في جولتنا التي قضيناها في ربوع الجبيل.. عبق الماضي.. وانجاز الحاضر.. وامل المستقبل، مستعرضين ماضيها وحاضرها □

تصوير: محمد صالح آل شبيب — ارامكو
حسين الرمضان — ارامكو
علي خليفة — ارامكو
الهيئة الملكية
سابك

التربية ولغة الأجسام

بقلم: الأستاذ محمد عبد الرحيم عدس / عمان



اللغة هي أكثر وسائل الاتصال شيوعا، وأسهلها استعمالا، ولكنها مع ذلك بحاجة الى ما يعززها، ويؤكد محتواها، ومع أن هناك وسائل أخرى للاتصال الا أننا كثيرا ما نستخدم اجسامنا وبعضا من أعضاء الجسم كوسيلة للاتصال أو معززة للغة جنبا الى جنب لتوكيد ما نريده، وتعزيزه، ونحن كمعلمين بحاجة للتعرف الى جميع أنواع الاتصال لمعرفة أثر كل منها ودلالاته لاستخدامه في الوصول الى أهدافنا.

يعتقد بعض الباحثين أن نوعا من الاتصال الصامت يصحب اتصالنا الشفوي مع الآخرين وقد يطابق الأول الثاني بغية التعزيز والتوكيد، فارتفاع الصوت مثلا، وضرب الطاولة بقبضة اليد تصحب الكلمات الغاضبة، وقد نستخدم الأول بدلا من الثاني للتعبير عما يجول في نفوسنا، فاحمرار الوجه وزم الشفتين واصطكاك الأسنان كلها اشارات تدل على غضب صاحبها وانفعاله.

وقد نستخدم هذين النوعين من الاتصال لبث رسائل مختلفة، ولكنها غير متناقضة، كما هي الحال بالنسبة لشخصين اجنبيين، انجذبا الى بعضهما البعض، وأخذا يتحدثان في أمور عامة وهما يطيلان النظر الى بعضهما، ويرققان من صوتيهما، ويقومان بتكيفات ايجابية نحو بعضهما بعضا.

ومع أننا قد نقوم بهذا النوع من الاتصال دون تفكير مسبق حيث يتقبله الآخرون بنفس الاسلوب الا أننا لا نستطيع أن نحدد دوما السلوك الذي نستجيب له فيه، أو يستجيبه غيرنا، وإن تمكن بعض الباحثين في السنين القلائل الأخيرة من عزل بعض الاشارات غير اللفظية التي يتكرر استخدامها وتحديد معناها.

وقد يتبادر للذهن لأول وهلة أن دراسة هذا الميدان قد لا تعود علينا بجديد، غير أننا نجد فيما بعد انها تجعلنا أكثر وعيا بهذا النوع من الاتصال غير اللفظي، وأفضل قدرة على ضبط سلوكنا التعبيري وفهم أفضل لما يعنيه هذا الاتصال،الأمر الذي يعود بالفائدة على كل من يتوقف عمله على دقة الاتصال مع الآخرين، ومنهم المعلمون.

ان العين هي احدى وسائل التعبير الهامة في الاتصال غير اللفظي، وعلى المرء أن يميز بين النظرة الطويلة التي تلتقي فيها العين بالعين وبين النظرة الخاطفة التي يمكن أن تدلك على اكمال الحديث وإنتظار الجواب، وقد تكون علامة تساؤل لمعرفة مدى تقبل الآخرين لما يقال أو تقبّلهم لشيء ما حدث.

والمحبون يختلسون النظر لبعضهم البعض أكثر من غيرهم، فاذا خصصنا احد الموجودين بنظرات تزيد على ما نمنحها لغيره كان معنى ذلك أننا نهتم به، أو نحبه أكثر من بقية الحاضرين.

اما ادامة النظر للآخرين بحيث تبدو طويلة نسبيا فمسألة أخرى ولها معان عدة تعتمد على السياق الذي حدثت فيه فقد تعني القوة أو التفضيل كما حددها (Exline) سنة ١٩٧٢. ومن ذلك اللعبة التي يلعبها الأطفال والتي تنم عن القوة حين يحدق الواحد منهم في الآخر لأطول مدة ممكنة. دون أن يرف له رمش أو يغمض له جفن، ويفهمها اللاعبون على أنها مظهر من مظاهر القوة والتفوق حيث يعتبر الفائز نفسه أقدر من خَصْمِه في السيطرة على تفاعله مع الآخرين، وهي سيطرة أشبه ما تكون بالقانون الذي يسود الحيوانات اذ عندما يتقاتل كلبان يحملق احدهما في الآخر كلما زمجر على خصمه، أو تشابك معه فاذا هرب احدهما أو انبطح على الأرض، أو كف عن الحملقة في عين خصمه كان معنى ذلك انهزامه.

وقد تعني الحملقة الطويلة الأمد كراهتنا لمن ننظر اليه والتي تتضمن ايضا معنى من معاني السيطرة والنفوذ، مثل ما يسمى بنظرة الكراهية فاذا دخل احدهم مكانا — دون إذن — نظر اليه الآخرون بكراهية وازدراء، وكأنما يطالبونه بمغادرة المكان بالسرعة الممكنة.

وقد تعني النظرة الطويلة الحب وقد يتساءل المرء الى أي مدى يمكن للشخص أن ينظر الى آخر دون أن يسبب له الضيق والازعاج. ان بعض الدراسات تشير الى أن الحد الأعلى في الاحوال العادية هو من (٣ — ١٠) ثوان. وقد نستعين لتوضيح المعاني المختلفة للنظر بما تعنيه هذه النظرة نفسها، وقد ورد في الأدب والأقوال المأثورة الشيء الكثير على ذلك، فقد ورد على لسان أحد شخوص رواية «انطونيو وكليوباترة» انه يمنح قلبه لما تلتهمه عيناه، كما ورد أيضا: لقد قبّلت عيناي عينيك، فقد رأيت الحب فيهما يبرق ويلمع.

وقال آخر: ان نظراته كالسهام والخناجر، وقال الشاعر:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعْرضت
وقعُ السهام ونزعهن اليم

ترى ما علاقة ذلك كله بالمعلم، وبالتصرفات التي تحدث في صفه؟ وللجواب على ذلك نقول: ان على المعلم ان يعي أن النظرة الطويلة تُفَسَّر على أنها اهتمام غير عادي، ولذا عليه ان يتجنب توجيه نظراته الى طلبة معينين بالذات حتى لا يفسرها الغير أنها دليل اهمال للآخرين وعدم عناية بهم، وقد يكمن في هذه النظرة معنى السيطرة والسيادة اذا ما وجهت للطفل العنيد، وبأسلوب غير فوضوي بغية معالجة عناده أما اذا كانت الغاية منها هي الحفاظ على النظام أو اختبار الطالب لمدى قدرة المعلم على الصمود او الاحتمال فمن الأفضل أن نبقى جامدين اذا كنا لا نريد أن نثير الكراهية ضدنا.

وتشير بعض الدراسات الى أن تعبيرات الوجه لها دلالات عاطفية يفهمها الجميع على اختلاف اعمارهم وتنوع حضاراتهم، وتباين ثقافاتهم. ومن ذلك الخوف والغضب والسرور والحزن والاشمئزاز والنفور، والازدراء، والدهشة والعجب، الا أن ابداء مثل هذه العواطف للجمهور يقررها عامل الثقافة وعامل السن كالبكاء الذي لا يظهره الشاب الا في حالة الحزن الشديد، واذا ما بدت بعض هذه العواطف بشكل محسوس للجمهور فتبدو بالأسلوب نفسه في مختلف الاصقاع.

ويحاول الكبار أن يخفوا احاسيسهم السلبية غير المقبولة عن الاطفال، فيوقعونهم أحيانا في الفوضى والارتباك مما قد يسبب لهم انفصاما في الشخصية، وذلك حين نعبر عن شيء ما بالكلمات في الوقت الذي يدل سلوكنا على شيء آخر أو اذا ما تفوهنا بأمور ايجابية بينما تدل احاسيسنا وانفعالاتنا على أخرى سلبية فالأم احيانا تبتسم وهي تؤنب طفلها على هفوة ارتكبها، مما يوقع الطفل في حيرة من هذا التناقض بين الكلمات وبين الابتسامة.

ان أي تأنيب يوجه للطفل يجب أن لا نشفعه بابتسامة، وقد لا نحتاج الى تعبير غاضب وإنما الى آخر يغلب عليه الهدوء دون ابتسام، فالأسلوب الموضوعي الهادىء مع عبارة توضح عدم رضانا عن سلوك ما، قد ينقل افكارنا بشكل واضح لا لبس فيه ولا ابهام، واذا كان لا بد من كلمات غاضبة فلنشفعها بتعبيرات للوجه تنم عن هذا الغضب وتعززه، اما اشارات الجسم وحركاته فهي أكثر امانة واصدق دلالة عما تعبر عنه وقد قام كل من «Frieson» و «Ekman» بتجربة سنة ١٩٦٩م دلّت على أن مريض العقل عندما كان يتظاهر بالهدوء والاتزان ليقنع المسؤول عنه انه قد شفي أو هو في طريقه الى الشفاء كان قادرا على أن يحتفظ بتعبيرات الوجه التي تتفق مع اقواله التي تقول بأنه تحسن كثيرا. غير أن جسمه ويديه وقدميه كانت تفضح حقيقة حاله، وقد كان المراقبون الذين يشاهدون وجوه هؤلاء أقل قدرة في التعرف الى ما كان ينتابهم من قلق واضطراب من أولئك الذين شاهدوا حركة اجسامهم فقط وقد يعزى السبب في هذا الى أن ما عندنا من خلفية عن تعبيرات الوجه تفوق تلك التي لدينا عن حركة الأجسام.

ويمكن للمعلم أن يقرأ في عيون طلابه دلالة التحدي أو السأم أو الملل أو الكآبة أو الخوف فيبادر لمعالجة الموقف على أساس أكثر صدقا اذا كان في مقدوره أن يتعرف الى دلالة حركات اجسامهم التي يقومون بها في الوقت نفسه والتي قد تدل احيانا على شيء أكثر مما نقصد.

ويكاد يكون من المتفق عليه أن وضع الجسم الممدود حين الجلوس هو اكثر قبولا لدينا من وضعه حين يكون غير ذلك، فنحن نحب مثلا، بل ونتقبل الانسان الذي يجلس ورجلاه ممدودتان الى الارض أكثر من ذلك الذي يضع رجلا فوق الأخرى، كما اننا نتقبل الشخص الذي يقبل علينا بجسمه وحواسه وهو يتحدث الينا أكثر من ذلك الذي يتحدث وقد أدار لنا ظهره وان كان معنا بكل حواسه. وللمسافة التي تفصل بيننا دلالتها كذلك. فقد اشار عدد من الباحثين الى أن كلا منا يحاول أن يحتفظ بمسافة ثابتة عن الآخرين وهو يتحدث اليهم بحيث لا يسمح لهم بدخول نطاقها الا اذا تمتعوا بميزات خاصة كأن يكونوا عشاقا، أو مصارعين على الحلبة، أو غيرهم ممن لهم الحق في الدخول ضمن هذا النطاق. ويتأثر مدى هذه المسافة لغير المقربين منا بالقواعد الاخلاقية المتبعة وبشخصية كل منا ولهذه قوانين غير مكتوبة لها علاقة بمظهر القوة، او التفضيل، فقد يكون أحدهم في مركز القوة، والآخر في مركز الضعف أو في مركز حب وتودد. وتقرّب الشخص منك وهو يتحدث اليك يدل على المودة ما لم تظهر الدلائل معنى آخر، وقد يعني بعد المسافة اتخاذ موقف الدفاع أو الكراهية أو الخوف أو الاحترام. اما بالنسبة للمعلم فالموقف واضح، فالاطفال الذين يقربهم منه، ويحتك بهم أو يلامسهم، يسمح لهم بالتقرب منه والذي يفسر على أنه تقبل سيكولوجي، اما من لا يمسك المعلم بيده أو لا يربت على كتفه مثلا فيشعر بأنه بعيد عنه وليس قريبا الى قلبه ويعكس الطفل كذلك رد فعله نحو معلمه وزملائه عن طريق المسافة التي يختارها لتفصل بينهما فمن كان واثقا من نفسه، ولديه دوافع قوية جلس قريبا من المعلم، أما من يشعر بالخوف أو الكراهية فيختار مكانا بعيدا عنه ويرى «Robert Sommer» أن يقف المعلم في الصف أمام التلاميذ وعلى دكّة مرتفعة قليلا تعزز من سلطته وكيانه ما دامت المراكز الأمامية أو العالية تُمنح للشخص القوي، أو ذي النفوذ والسلطان وهو لذلك يقترح الاستخدام المَرِن لغرفة الصف وأن نستخدم أثاثاً يمكن تحريكه بسهولة، ويخدم اغراضا متعددة وأن لا يكون للطفل مكان معين للجلوس وإنما يجلس حيث يمليه عليه مزاجه، وحيث تمليه عليه الحاجة.

واذا كان من غير المقبول ان يقوم المعلم بأي اسلوب لفظي سلبي تجاه أي طفل فانه كذلك من غير المقبول أن يتخذ أي سلوك آخر غير لفظي من هذا القبيل حركي أو تعبيري ولم يعد يكفي المعلم ان يتكلم بالأسلوب نفسه واللهجة اياها لجميع الأطفال وإنما عليه أيضا أن يهتم بنظراته وان يصغي اليهم، ويبتسم لهم ويتقرب لكل منهم بالأسلوب الذي يجد له فائدة أكبر ومردودا أوفر □

لزوم ما لا يلزم بين أبي العلاء.. وسابقيه

بقلم: د. محمد أحمد العزب / القاهرة

كان ابو العلاء من بيت علم وقضاء، ورياسة وثراء، تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها، ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون رأسوا وساسوا، وكان فيهم الكاتب والشاعر... ولد سنة ٣٦٣هـ. وعمي بالجدري أول سنة ٣٦٧. وكان يقول: لا أعرف من الالوان الا الأحمر، لأنهم البسوني حين جدرت ثوبا معصفرا، لا أعقل غير ذلك... وتوفي سنة ٤٤٩هـ بالمعرة، في خلافة القائم العباسي، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة.[١]

وكان مطلعا على العلوم متبحرا في اللغة متسع النطاق في العربية جامع الشعوب للطرق الأدبية.. كما يقول عنه ابن فضل الله العمري في كتابه: «مسالك الأبصار».

وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي، ويزعم انه أشعر المحدثين، ويفضله على بشار ومن بعده، مثل ابي نواس، وابي تمام.. كما يقول ياقوت الحموي في كتابه: (ارشاد الأريب الى معرفة الأديب).

يقول ابن خلكان: (وكان متضلعا من فنون الأدب، قرأ النحو واللغة على أبيه بالمعرة. وعلى محمد بن عبدالله بن سعد النحوي بحلب، وله التصانيف الكثيرة المشهورة، والرسائل المأثورة. وله من النظم «لزوم ما لا يلزم» وهو كبير يقع في خمسة أجزاء، أو ما يقاربها، وله «سقط الزند» أيضا، وشرحه بنفسه وسماه: «ضوء السقط». وبلغني أن له كتابا سماه: «الايك والغصون» وهو المعروف بالهمزة والردف، يقارب المائة جزء، في الأدب ايضا، وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف. وقال: لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد؟ ولما فرغ من تصنيف كتاب: «اللامع العزيزي» في شرح شعر المتنبي وقرىء

(١) احمد تيمور باشا: ابو العلاء المعري ص/١٧ — ١٨.

عليه، اخذ الجماعة في وصفه فقال ابو العلاء: كأنما نظر المتنبي الي بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

واختصر ديوان ابي تمام، وشرحه، وسماه: «ذكرى حبيب» وديوان البحتري وسماه «عبث الوليد» وديوان المتنبي وسماه «معجز احمد». وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها، ومآخذهم من غيرهم، وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم، والنقد في بعض المواضيع عليهم، والتوجيه في أماكن لخطئهم)[٢].

اثبتنا هذه النقول عن حياة أبي العلاء وثقافته لنخرج من ذلك الى أننا بازاء رجل كان مؤهلا بالفعل لريادة اتجاهات متعددة في الابداع وليس اتجاها واحدا بذاته.. فقد اشتق في الشعر العربي اتجاها الى الرثاء من خلال داليته التي يرثي بها صديقه الفقيه الحنفي وغيرها ما نظن انه كان موجودا قبل أبي العلاء بهذه اليقظة الفنية التي تتأمل في رثاء انسان — كل مظاهر الكون، بدءا وصيرورة ومصيرا.. كما اشتق في النثر العربي اتجاها الى الفرادة الفنية من خلال عمله الرائع في (رسالة الغفران) التي جلى فيها جانبا من عبقرية الخيال العربي وعبقرية اللغة العربية على السواء، وكشف فيها كثيرا من جوانب الحقائق العلمية المتصلة بتاريخية الشعر واصولية اللغة في ذكاء مثير..

فاذا تصدى في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) الى ريادة أخرى من نوع مختلف فذلك مبرر له، وان كان في حاجة الى استقصاء

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، عن (تعريف القدماء بأبي العلاء) ص/١٨٢.



للمحاولات التي وجهته — على الأقل — الى اقتحام هذا المجال ربما في شعر الشعراء السابقين عليه.

وبداية يلوح فعل أبي العلاء في (لزوم ما لا يلزم) نوعا من التحدي العبقري الذي يريد من ورائه صاحبه أن يؤكد جدارته الفنية واللغوية بشكل خارق تماما، فقد أحصى ابو العلاء حروف المعجم فوجدها — كما يقول الدكتور طه حسين — ثمانية وعشرين حرفا، ثم أحصى الحركات التي يمكن أن تختلف على هذه الحروف فوجدها ثلاثا وأضاف اليها السكون، فحصلت له من هذا أشكال أربعة للقافية، فلما استقام له هذا الحساب أخذ نفسه بأن ينظم شعرا يقفيه بكل هذه الحروف مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة، ولو اكتفى بذلك لكان في الجهد كل الجهد، والعناء كل العناء، ولكنه أضاف اليه التزام الحرف الذي يسبق القافية في البيت الأول من القصيدة أو المقطوعة، بحيث لا توجد القافية في أي بيت من أبيات القصيدة أو المقطوعة، الا ومعها هذا الحرف الذي سبقها في البيت الأول[٣]. واذن فان معنى (لزوم ما لا يلزم) انه يلتزم قبل الروي حرفا اذا غير لم يكن مخلا بالنظم كما يلوح في سائر محاولته الفذة، ولكن الرجل اخذ نفسه بهذا الشرط الفني، وحاول أن يوائم بينه وبين ما وضعه النقاد الذين رصدوا هذه الظاهرة من شرط اساسي لها، وهو عدم الانزلاق بلزم ما لا يلزم الى نوع من التكلف او الاعتساف الذي يحيل الابداع الى مهارات لغوية فارغة من النبض الشعوري، وان لم تسلم له هذه المحاولة بالكامل. فوقع احيانا في شرك الاعتساف والتكلف، مع أنه كان يعي بالتأكيد مثل هذا الشرط الذي أكده مثل ابن سنان الخفاجي في كتابه: (سر الفصاحة) حين قال:

(٣) انظر: مع أبي العلاء في سجنه لطه حسين، ص/١١٠.

(وليس يغتفر للشاعر اذا نظم على هذا الفن — لأجل ما الزم نفسه ما لا يلزمه — شيء من عيوب القوافي، لأنه إنما فعل ذلك طوعا واختيارا من غير الجاء ولا اكراه، ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق وأقرب السبل، وليس بنا حاجة الى المتكلف المطرح، وان ادعى علينا قائله ان مشقة نالته، وتعبا مر به في نظمه)[٤].

فاذا تركنا ذلك، الى قضية البحث عن جذور هذه الظاهرة في التراث السابق على ابي العلاء، هالنا ان الاجماع النقدي يوشك ان ينعقد على أن المعري هو أول من راد هذا الطريق، وأول من أصل هذه الاتجاه، فاذا اوغلوا في التحوط اشاروا الى قصيدة يتيمة في التراث الشعري لكثير عزة، التزم فيها اللام قبل التاء، وقد اشار ابو العلاء نفسه الى هذا السبق التاريخي لكثير في قوله:

كثيّر انا في حرفي أهبت لـه
في التاء يلـزم حرفـا ليس يلتزم

يريد حرف اللام الذي التزمه كثير قبل التاء في قصيدته التي مطلعها:

خليلي هـذا ربـع عزة فاعقــلا
قلوصيكما ثم ابكيـا حيث حلت

فاذا كانوا يقصدون أن أبا العلاء هو أول من كشف الابداع على هذا النسق حتى بلغ ذلك ديوانا بكامله سماه: لزوم ما لا

(٤) ابن سنان — سر الفصاحة — ص/١٨٠—١٨١.

يلزم.. فهم على حق في هذا الاطلاق بلا جدال.. اما اذا كانوا يقصدون ان ابا العلاء هو أول من الف شعره في هذا الاتجاه، أو حتى هو ثاني من الف شعره في هذا الاتجاه بعد كثير عزة الذي اعترف له بريادة هذا النسق الابداعي، فذلك هو مناط الجدل بيننا وبينهم، لأن واقع الابداع العربي يتجاوز هذا التحديد الضيق والمغامر في آن.. ولأننا نعتقد أن الاطلاق هنا نوع من التبسيط المخل، ربما لأننا نؤمن بأن أية ظاهرة فنية لا يمكن أن تتخلق في معزل عن سائر الظواهر الأخرى — فضلا عن مسلمة كونها لا يمكن أن تتخلق في فراغ كامل — بمعنى أن كل ظاهرة تؤثر في سائر الظواهر، وتتأثر كذلك بسائر الظواهر، ولا يهم بعد ذلك ان تكون الظاهرة المتأثرة تنويعا حرفيا على الظواهر المؤثرة، فقد تتخذ لها اتجاها مغايرا أو حتى نقيضا، ومع ذلك تؤكد أنها امتداد من لون ما لهذه الظواهر التي دفعتها الى هذا المنطلق أو ذاك.

وفي ضوء هذه الملاحظة النقدية يمكن أن نفهم أن اتجاه ابي العلاء الى (لزوم ما لا يلزم) في شعره، لم يكن انطلاقا من الفراغ كما يحاول الاجماع النقدي أن يصوره، وإنما كان امتداداً لظواهر أخرى من جهة، وتطويرا لتكثيف (الايقاع والموسيقى) في هذه الظواهر من جهة أخرى... بمعنى أن أبا العلاء فتن بريادات تلتزم في شعرها ما لا يلزم، فحاول أن يقبض منها على الراية في هذا الصدد، وقد استطاع... ثم هو فتن بايقاع بعض الشعر وموسيقاه، فحرص على تكثيف هذه الموسيقى وهذا الايقاع، ربما ليعوض حاسة الرؤية بحاسة السمع، فحرص على التقفية ليس بحرف واحد كما فعل سابقوه، وإنما بحرفين واحيانا بثلاثة حروف.. الى جانب ما عرف عنه من حب جارف لاستعراض ملكاته اللغوية والتركيبية في تصميم شكل القصيدة العربية، وقد يؤيد ما نذهب اليه قول ابن سنان الخفاجي: (وقد التزم بعض الشعراء في القوافي اعادة ما لا يلزمه طلبا للزيادة في التناسب، والاغراق في التماثل، كقول الحطيئة:

الا من لقلب عارم النظـرات
يقطع طول الليـل بالزفـرات
اذا ما الثريا آخر الليل اعتقت
كواكبها كالجـزع منحـدرات

فالتزم الراء في جميعها قبل الروي، وهي غير لازمة)[٥].. فاذا كان ذلك عند غير ابي العلاء، فما نظن الا أنه كان حريصا على ذلك بأكثف من هذا كثافة بما لا يقاس.

ومايهمنا هنا بالدرجة الأولى نماذج وردت متفاوتة بين القصيدة، والأبيات.. وتسلسلت هذه النماذج في عصور الجاهلية والاسلام والأمويين والعباسيين.. مما يؤكد أن الظاهرة اللزومية كان لها وجود تاريخي في هذا الشعر وان كانت لم تأخذ شكلها النهائي المستقر الا على يد أبي العلاء المعري من غير شك.. فابن الأثير يقول: (ومما ورد من ذلك أيضا قول طرفة بن العبد البكري:

الم تر أن المـال يكسب أهلـه
فضوحا اذا لم يعط منه نواسبه
ارى كل مال لا محالة ذاهبا
وافضله ما ورث الحمد كاسبه[٦]

ويتبدى من خلال استشهادات ابن الأثير على هذا النحو الذي ألم بالشعر الجاهلي، والقرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام العرب. ثم شعر العصور التالية، أن لزوم ما لا يلزم ظاهرة فرضت وجودها على الذاكرة الابداعية، وجاء القرآن الكريم ليبرر وجودها الجمالي، ويضعها نسقا من انساق الخطاب الآسر الذي يستولي على مشاعر المتلقين... ولكننا نلاحظ على مجمل هذه الاستشهادات انها ليست اعمالا كاملة، وإنما هي أبيات من قصائد، وفقرات من حديث، وآيات من القرآن الكريم.. أي أنها كانت ظاهرة قليلة الورود. حتى جاء ابو العلاء فكثّرها وعممها.

حتى القصيدة اليتيمة الكاملة التي استشهد بها مؤرخو هذه الظاهرة، وهي لكثير عزة، لم تسلم لهم جميعها. وحين لم تسلم لهم حاولوا تنحية النتوء الذي يمكن أن يخرجها عن كلية التوجه واظننا الى هنا نكون قد ربطنا بين الظاهرة كما هي في تمامها عند أبي العلاء، وبينها كما هي في نشوئها واستحالتها عند سائر الشعراء قبل أبي العلاء، مما يتيح للناظر المتأمل أن يهتدي الى الخيط الرابط بين السياقين، حتى وان كان خيطا دقيقا لا يهتدي اليه الا الملبثون البصراء بحقائق الأشياء.

فـاذا فرغنا من تقرير هذه الملاحظة هكذا بلا ابطاء كبير، افضينا بعد ذلك الى عديد من الفرضيات النقدية التي ما نشك في أنها كانت عناصر كامنة في توجه أبي العلاء الى لزوم ما لا يلزم من شعره.. ونعني بهذه الفرضيات مجموع الظواهر التي التزم فيها أصحابها نوعا من اللزوم ليس بالضرورة في نهاية الكلمات التي تنتهي بها الأبيات، بل هي كما أسلفنا ظواهر يمكن أن تؤثر في نشوء ظاهرة اللزوم وان لم تكن الظاهرتان على نحو من التطابق النوعي.

مثلا شعر الاراجيز، بحرصه الكامل على التصريع في كل أبيات الارجوزة، لماذا لا يكون عنصرا كامنا في محاولة أبي العلاء اللزومية، عبورا فوق دعوى ان شعر الاراجيز كان —كما يقولون— أسهل أنواع الشعر على الشعراء، حتى أوشكوا ان يلحقوه بالنثر المسجوع وليس بالابداع الشعري؟ ان لزوم ما لا يلزم في (التصريع) الذي يحرص عليه شعر الاراجيز يمكن أن يكون نقطة انطلاق أبي العلاء الى لزوم ما لا يلزم في القافية، وان اختلفت نوعية الالتزام في كل من اللونين، ربما سعيا وراء مزيد من الموسيقى في شعره، كما فعل امروء القيس مثلا في أبياته:

(٥) ابن سنان — سر الفصاحة — ص/١٧٩.

(٦) ابن الأثير: المثل السائر، ج/١ ص/٣٧٠.

تـروح مـن الحي أم تبتكـر
وماذا عليك بـأن تنتظـر؟
امـرخ خيامهـم أم عشر
ام القلب في اثرهـم منحـدر؟
وشاقك بين الخليط الشطـر
وفيمـن أقام مـن الحي هرّ

فهو هنا يميل الى هذا التصريع سعيا وراء تكثيف الايقاع الموسيقي، وان كان لم يقصد الى الترجيز أو الى لزوم ما لا يلزم.. فلماذا لا تكون محاولة أبي العلاء، كما أسلفنا، نوعا من الضرب في هذا الاتجاه؟

ولماذا لا يكون شعر القوافي المشتركة عنصرا آخر من العناصر الكامنة في محاولة أبي العلاء هذا النوع من الابداع اللزومي، وان اختلفت طبيعة المحاولتين ونوعيتهما في وجه ما؟ ان الشاعر الذي أجهد نفسه في تقفية أبيات من شعره بكلمة واحدة تعطي في كل بيت معنى مغايرا يتفق مع سياق التركيب في البيت، ولا يصادم تدفق السياقات الأخرى في سائر الأبيات، كان بالتأكيد يلتزم في مثل هذا الشعر ما لا يلزم، فكلمة (الغروب) جاءت في هذه الأبيات الثلاثة التالية قافية لكل بيت منها، ومع ذلك اختلفت دلالتها اللغوية في كل بيت من الأبيات:

يا ويح قلبي من دواعي الهـوى
ان رحل الجيران عند الغـروب
اتبعتهم طرفي وقـد ازمعـوا
ودمع عيني كفيض الغـروب
بانوا وفيهم طفلـة حـرة
تفتر عن مثل اقاصي الغـروب

فالغروب استعملت بمعان ثلاثة: الأول غروب الشمس، والثاني جمع غرب وهو الدلو الممتلئة، والثالث جمع غرب وهو الوهاد المنخفضة.. فاذا كان ذلك كذلك، فلماذا نستبعد ان تكون مثل هذه المحاولة نوعا باكرا من لزوم ما لا يلزم. وهو هنا توظيف الكلمة الواحدة في الدلالة من مواطن هذا التوظيف باشعاعها الشعري، من غير غياب في ظلام التعميم أو فقدان الهوية كما نرى؟

ولماذا لا تكون القصائد المعراة من أحد حروف الهجاء عنصرا آخر من العناصر الكامنة في توجه أبي العلاء الى لزوم ما لا يلزم؟ فقد حرص اصحاب هذا الاتجاه في الشعر على أن تكون قصائدهم هذه خالية من احد حروف الهجاء، كقصيدة الصاحب بن عباد (٣٣٥هـ).

قد ظـل يجـرح صـدري
مـن ليس يعـدوه فكـري

فهي خالية من حرف الألف.. ويقولون: انها سارت في الناس، فعمل الصاحب قصائد كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء، وهو اتجاه شديد الرهق في الابداع كما نرى، يمثل في النهاية نوعا من لزوم ما لا يلزم، وبخاصة حين يحاول شاعر هذا اللون ان يكون شاعرا قادرا وفنانا في آن معا.

يا خاطب الدنيا الدنية انها
شرك الردى، وقرارة الاكـدار
دار متى ما اضحكت في يومهـا
ابكت غدا، بعدا لها من دار
غاراتها لا تنقضي واسيرهـا
لا يفتدى، بجلائـل الاخطـار

فأنت تستطيع أن تقف عند (الردى) في البيت الأول، وعند (غدا) في البيت الثاني، وعند (يفتدى) في البيت الثالث، كقوافي للأبيات الثلاثة، وتستطيع أن تكمل فتجعل (الاكدار) في البيت الأول، و(الدار) في البيت الثاني، و(الاخطار) في البيت الثالث قوافي للأبيات.. فاذا وقفت من الأبيات على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من بحر على عروض. واذا اضفت الى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى كان كذلك شعرا مستقيما من بحر آخر على عروض، وصار ما يضاف الى القافية الأولى للبيت كالوشاح [٧].. فلماذا لا يكون هذا اللون عنصرا آخر من العناصر الكامنة في محاولة أبي العلاء لزوم ما لا يلزم في شعره؟؟؟ الى آخر ما يمكن الاستطراد اليه من هذه الالوان التي يسمونها: (الملحق باللزوم) في التآليف البلاغية [٨].

وهكذا نستطيع ان نسترسل فنرصد عديدا من الظواهر التراثية التي يمكن ان تكون عناصر كامنة في محاولة المعري، دون أن نتحيف من القيمة النهائية لجسارته ونضوج تجربته. واستوائه بلا جدال على عرش الفرادة والنبوغ في هذا المجال، وغيره من المجالات، لأن شاعرا في حجم أبي العلاء لم يكن من الممكن أن تمر هذه المحاولات بذاكرته المثقفة، مرورا عابرا او مسطحا. فاجتازها اولا بلا شك، ثم اجتازها ثانيا بلا شك كذلك.. واذا كان غيره قد حدد له طريقا في الصخر، فقد اندفع هو في هذا الطريق بكل طاقته التاريخية المبدعة، فأحال هذا الصخر الى حدائق ابداعية جميلة، واقام من مجرد مفرداته الساذجة ابنية فنية وتشكيلية كاملة. ودلل بجسارة حقيقية على أن أية ظاهرة أدبية لا تنتمي الى أول من فجرها فحسب، ولكنها تنتمي كذلك الى من استطاع أن يصير بها الى التشكل الجمالي في انساقه المتكاملة، وظل ابو العلاء مع ذلك كله شاعرا يرقص في قيوده، وينطلق من (خصوصية) فنية بارزة، الى تعميق حسنا بضرورة فرادة الشاعر، وتأبيه على أن يكون نسخا شائها لأي صوت ولكل صوت على السواء!!!□

---

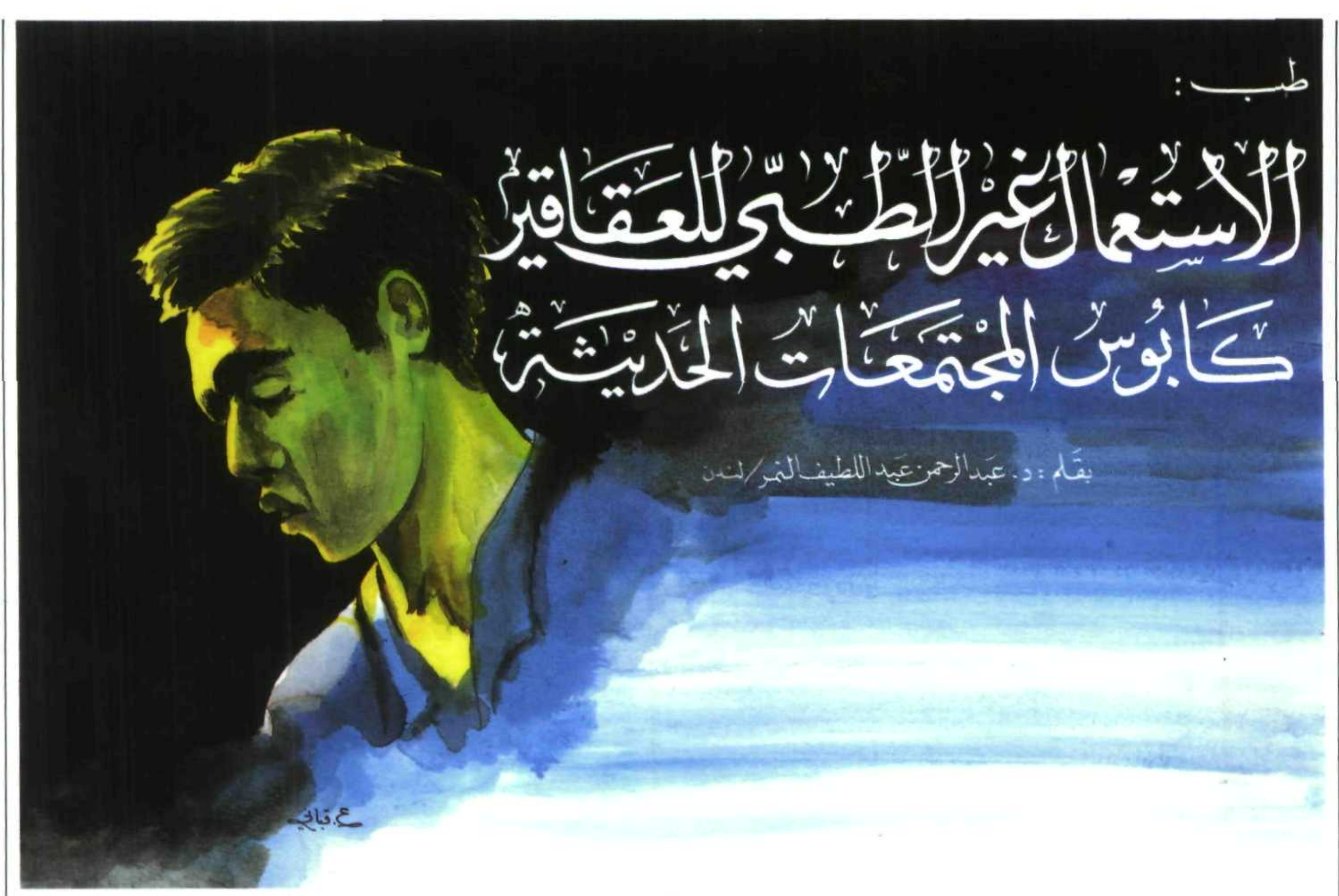
(٧) انظر: التلخيص، للقزويني، شرح البرقوقي، ص/٤٠٥ — ٤٠٦.

(٨) منها: تصغير الكلمة الأخيرة من الشعر، والخيف، والرقطاء، والموصل، والمقطع، والحذف، والمجاز، والتضمين، والألفاظ لا تنطبق الشفتان في حروفها.

طب:

الاستعمال غير الطبي للعقاقير كابوس المجتمعات الحديثة

بقلم: د. عبد الرحمن عبد اللطيف النمر / لندن



عبر التاريخ المعروف، استخدمت كافة المجتمعات البشرية انواعا مختلفة من المواد المصنعة أو المستخلصة من الطبيعة لإحداث تأثير ما على مزاج الانسان وتفكيره وشعوره! وبينما استخدمت تلك المواد، أو «العقاقير» بلغة العصر، في الاغراض الطبية والعلاجية، فان نفرا من الناس استخدموا ذات المواد لاغراض غير طبية ولا علاجية. وعلى ذلك فان الاستخدام غير الطبي للعقاقير مشكلة تاريخية ضاربة في القِدَم.

والمجتمعات الحديثة ليست استثناءً مما وقعت فيه، وعانت منه، المجتمعات البشرية السابقة. إلاَّ أن مشكلة تعاطي العقاقير لأغراض غير طبية ولا علاجية، تأخذ أبعادا وبائية في العصر الحالي! إذ لا يكاد يسلم مجتمع بشري واحد في عالم اليوم من هذه المشكلة، وإن كانت المعاناة بدرجات متفاوتة.

وقد امتد لهيب المشكلة الى معظم المجتمعات العربية، بحيث بات يكتوي بنارها المئات — إن لم تكن الآلاف — من الضحايا، معظمهم في عمر الزهور! ويمتد لهيب النار ليحرق — مع الضحايا — مئات الأسر، ويترك من ثم أثراً غير هيِّن في المجتمع ككل.

ونظرا لخطورة هذه المشكلة الاجتماعية والأبعاد المترتبة عليها، فاننا ننظر الى جوانبها المختلفة بهدف تحقيق الحكمة القائلة: «اذا عرفت الشر، كنت أحرى ألّا تقع فيه».

ما هي العقاقير

بادىء ذي بدء يجب أن نعرف ما هي العقاقير، وما هو المقصود بكلمة «عقار» أو «دواء» « Drug ».

وفقا للتعريف الذي وضعته منظمة الصحة العالمية، فان العقار أو الدواء هو: «أيّ مادة أو مستحضر تستخدم، أو يرادُ استخدامها، للتحوير أو التأثير على الأجهزة في الجسم. أو للتأثير على وظائف تلك الأجهزة، سواء أكان ذلك لاكتشاف عمل تلك الأجهزة أم للتصدي لحالات مرضية فيها، على أن يكون الهدف في كل الأحوال تحقيق فائدة للانسان الذي يتعاطى تلك المادة أو المستحضر»[1].

وطبقاً لعلم العقاقير (أو علم الأدوية) فان العقار هو «مادة كيميائية تكون العنصر الفعال في «دواء»»،وقد يحتوي الدواء على مواد أخرى — اضافة الى العنصر الفعّال — بهدف المحافظة على الطبيعة الكيميائية للدواء (حمايته من الفساد) أو لجعله مقبولا وسهل التعاطي للمريض».

على أن كلمة عقار تستخدم هذه الأيام، خارج الأوساط الطبية والعلمية، للاشارة الى «مادة ضارة مسببة للادمان». كما أن عبارة «تعاطي عقاقير» تستخدم بالمثل للدلالة على الاستعمال غير الطبي للعقاقير. اما المقصود بعبارة الاستخدام غير الطبي للعقاقير

(١) التقرير الفني رقم «٣٤١» الصادر عن منظمة الصحة العالمية عام ١٩٦٦(صفحة ٧).

فهو أن يقوم انسان بتعاطي عقار ما، بمحض ارادته ودون توجيه من طبيب، ولغير أسباب طبية أو علاجية، إما بدافع الفضول، او بهدف تجربة العقار، أو لتحقيق غرض ما مثل الشعور بالنشوة والارتخاء أو الراحة النفسية، او لغير ذلك من الأغراض.

وتقسم العقاقير التي تستخدم لاغراض غير طبية الى نوعين:

* العقاقير الخطيرة « Hard Drugs »، وهي العقاقير التي ينشأ عن تعاطيها حالة «اعتماد على العقار» أو «إدمان» تؤدي الى تدهور خطير في الحالة الصحية والعقلية لمن يتعاطاها، تنعدم معه القدرة على القيام بأي عمل أو النهوض بأي أعباء اجتماعية. وبتعبير آخر، فان تعاطي العقاقير الخطيرة ينتهي بالمدمن (أو متعاطي العقار) الى أن يصبح حطام انسان لا أمل في الاستفادة منه كعضو في مجتمع بشري!

وتجدر الاشارة هنا الى أنه بسبب صعوبة الفصل بين «الادمان» « Addiction » و«التعوُّد» « Habituation » من وجهة النظر الطبية، فقد اقترحت منظمة الصحة العالمية استخدام التعبير «الاعتماد على العقار» « Drug Dependence » كبديل لكلمتي ادمان وتعوُّد.

تشمل العقاقير الخطيرة «الأفيون — Opium »، و«الهيروين — Heroin »، و«المورفين — Morphine »، ونظائرها.

* «العقاقير الأقل خطورة - Soft Drugs »، وهي العقاقير التي ينشأ عن تعاطيها اعتماد نفسي أو عاطفي على العقار مع درجة بسيطة من الاعتماد العضوي على العقار. وسوف يأتي الحديث عنها لاحقا.

وتشمل هذه المجموعة المسكنات والمهدئات والحشيش والماريجوانا وعقار الهلوسة وكبسولات «أمفيتامين» والتبغ. يضاف الى ذلك مجموعة من المواد التي دخلت الى حقل الاستعمال غير الطبي للعقاقير في السنوات الأخيرة، والتي يُقبِل صغار السن على استنشاقها لما لها من تأثير على الجهاز العصبي. من ذلك، استنشاق البترول (وقود السيارات) وطلاء الأظافر والسوائل اللاصقة، التي تستخدم كبديل للصمغ عند لصق مواد لا يمكن لصقها بالصمغ، ومذيبات الدهان، وغاز البوتان، وجميع المركبات الأخيرة عضوية (أي فيها كربون) ومعظمها من نواتج الصناعات الكيميائية القائمة على تقطير وتكرير النفط، أي «البتروكيميائيات».

أما الكحول، وهو موجود في كافة أنواع المشروبات الروحية وبعض أنواع البيرة، فيمكن أن يقع في أي من المجموعتين: مجموعة العقاقير الخطيرة أو مجموعة العقاقير الأقل خطورة! والذي يحدد موقع الكحول هو طريقة الاستعمال! فتعاطي الكحول بصورة منتظمة، يضعه في مرتبة العقاقير الخطيرة. ذلك أن الاعتماد على الكحول (أو الادمان) سوف ينشأ حتما نتيجة التعاطي المنتظم والمتكرر.

ومن غير المعروف يقينا كيف يحدث الاعتماد العضوي على عقار بعينه! وعلى الرغم من عشرات الدراسات والتجارب التي أجريت على فصائل الحيوان المختلفة وعلى المدمنين من البشر، الا أن هذه الظاهرة ما تزال غير مفهومة بوضوح. ويسود اعتقاد بأن تعاطي عقار ما يؤدي الى إحداث تغييرات في وظائف الأعضاء في اطار عمليات التكيف التي يتميز بها جسم الانسان. وعندما يسحب العقار من الجسم (نتيجة امتناع المدمن عن تعاطيه او عدم حصوله عليه) تضطرب وظائف الجسم نتيجة تكيفها مع وجود العقار. ويظهر هذا الاضطراب فيما يسمى «أعراض الانسحاب — Withdrawal Symptoms».

أعراض الانسحاب

تختلف أعراض الانسحاب من حيث النوع والحدة تبعا لاختلاف العقار، ومدى تأثيره على الجهاز العصبي. فمثلا، تظهر اعراض الانسحاب عند مدخن التبغ المدمن بعد ساعة أو ساعتين من تدخينه آخر لفافة، وتكون في مجملها محتملة، إذ تتمثل في الشعور بالصداع والضيق والتوتر. وربما تحدث رعشة في الجسم وشعور بالبرد بعد انقضاء عدة ساعات على الامتناع عن التدخين. ثم تخفت اعراض الانسحاب تدريجيا الى أن تزول تماما في نهاية اليوم الثالث من الإقلاع عن التدخين.

تختلف هذه الصورة الهينة تماما عن صورة الأعراض الناشئة عن سحب (الامتناع عن تعاطي أو الانقطاع) الأفيون أو أحد أفراد عائلته (المورفين والهيروين ونظائرهما). فبعد ثماني الى اثنتي عشرة ساعة من آخر جرعة من الأفيون، تظهر الأعراض الأولى للانسحاب متمثلة في التثاؤب والعرق ورشح الأنف وتدميع العين وبعد انقضاء ما بين اثنتي عشرة الى أربع عشرة ساعة على الجرعة الأخيرة، يقع المدمن أسير نوم غير مريح يتقلب أثناءه بكثرة. وبعد عدة ساعات، يستيقظ في أسوأ حال من ذي قبل، فيشعر بالبؤس والتوتر وعدم الراحة.

عند هذه المرحلة، اذا لم يأخذ المدمن جرعة من عقاره، تتوالى أعراض الانسحاب في التفاقم، وتضاف اليها أعراض جديدة، فيفقد المدمن شهيته الى الطعام، وتتسع حدقتا عينيه وتحمرّ العينان بشدة. كما تزداد حدة التوتر والشعور بعدم الراحة، إضافة الى حدوث رعشة في الجسم.

وتصل أعراض الانسحاب عند المدمن الى ذروتها في الفترة ما بين ثمان وأربعين ساعة واثنتين وسبعين ساعة من الجرعة الأخيرة. وتتمثل الأعراض في هذه المرحلة بتوتر شديد، وتثاؤب عنيف مع فقدان القدرة على النوم، والعطس بشدة مع فقدان شديد لشهية الطعام، وتدميع العين ورشح الأنف بصورة تشبه الزكام الحاد. ثم يشعر المدمن باكتئاب شديد وضعف وهزال شديدين. كما يشعر بالغثيان، ويكون هناك قيء شديد وإسهال وتقلصات حادة في الأمعاء أي مغص شديد. ويرتفع ضغط الدم ويسرع النبض عند هذه المرحلة. كما يصاحب الأعراض المذكورة كلها آلام حادة في العظام والعضلات، مع تقلصات حادة في كل عضلات الجسم. وتحدث نوبات متبادلة من الشعور بالبرد والشعور بالدفء.

عدم تناول الطعام، اضافة الى القيء والاسهال، يؤدي الى نقص وزن الجسم وحدوث «الجفاف - Dehydration» (نقص خطير في سوائل الجسم) ونشوء اضطراب خطير في كيمياء الجسم (اختلال توازن «الحامض — القلوي»). وتؤدي هذه الاضطرابات مجتمعة الى حدوث هبوط حاد في الجهاز الدوري (اخفاق القلب) يكون سببا في موت المدمن حول اليوم الرابع الى اليوم السابع من الانقطاع عن العقار.

أما أعراض الانسحاب عند مدمن الكحول فلا تقل ألما ولا بشاعة عن تلك عند مدمن الأفيون. فبعد ساعات قليلة من تعاطي آخر جرعة من الكحول، تظهر رعشة الاطراف سرعان ما تشمل الجسم كله، وتكون مصحوبة بالضعف والقلق والعرق والشعور بالغثيان. ثم يتبع ذلك قيء وحدوث تقلصات، في البطن والامعاء أولا، ثم في باقي الجسم.

هذه المرحلة الأولى من أعراض انسحاب الكحول، والتي تسمى «مرحلة الارتعاش» (أو الانتفاض) تبلغ أوجها بعد أربع وعشرين ساعة من الانقطاع عن الكحول. وخلال الساعات الأربع والعشرين تنشأ «مرحلة التشنج». وفي تلك المرحلة تحدث نوبات تشنج شبيهة بنوبات الصرع، إلا أنها أطول زمنا من نوبات الصرع (نوبة الصرع تستغرق عادة دقيقتين الى خمس دقائق). وعلاوة على التشنج تتفاقم حدة الاضطراب الذهني الذي تبدأ بوادره في مرحلة الارتعاش، فيفقد المدمن الشعور بالزمن والمكان والاتجاه! كما يبدأ في الهلوسة، حيث تتراءى لناظريه شخوص وأشياء (لا وجود لها في الواقع) غالبا ما تقوم بتعذيبه! لهذا فقد يعدو المدمن عند هذه المرحلة هربا من التعذيب — اذا استطاع الحراك!

بعد اثنتين وسبعين ساعة من آخر جرعة كحول، تبدأ المرحلة الختامية في أعراض الانسحاب، والتي تسمى «هذيان المدمن — Delirium Tremens». هذه المرحلة هي أشد المراحل الثلاث ألما للمدمن — ولمن يراه على ذلك الحال! اذ يبدو كحيوان أبله حبيس في قفص يئن ويهذي ويبكي، ولا يستقر على حال، اذ يتململ كأنما يجلس على نار! ويكون الشعور بالضعف قد بلغ أوجه، فغالبا ما يقضي المدمن نحبه عند هذه المرحلة، أو ما بين اليوم الخامس والسابع من الانقطاع — على أكثر تقدير. وسبب الوفاة في هذه الحالة هو الاضطرابات الغذائية والكيميائية، الناتجة عن عدم تعاطي أي غذاء (بسبب الاضطراب العقلي) والناتجة كذلك عن اضطراب أجهزة الجسم (وفي مقدمتها الكبد والمخ والقلب).

المخاطر والعواقب

قديما قالت العلماء: «أربعة لا يجترىء عليهن إلا أهوج: الثقة بكل أحد، وصحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة»!

فاذا اجترأ إنسان وشرب السم للتجربة، فما هي العاقبة؟! بعض الناس يجد التجربة الأولى غير سارة فينصرف عن العقاقير جملة وتفصيلا. الا أن البعض الآخر، تحت ضغوط نفسية أو اجتماعية أو نتيجة أفكار معينة، يستمر في تعاطي العقار مستمرئا ومستعذبا «نشوة العقار»! وقد يكون للعقار نشوة، الا أنها باهظة الثمن، للفرد والمجتمع على حد سواء.

* المخاطر الفردية: في المدى القريب، قد لا تكون آثار تعاطي العقار واضحة للفرد أو لمن حوله. لكن على المدى البعيد يكون تعاطي العقار سببا في النبذ الاجتماعي وفقدان العمل، وحتى فقدان القدرة على الكسب المشروع. وقد لا يستطيع المدمن مواصلة تعليمه، خصوصا اذا بدأ تعاطي العقاقير في سن مبكرة.

أما المخاطر الصحية، فحدِّث ولا حرج. فما من جهاز في الجسم الا ويصيبه التلف — بدرجات متفاوتة. فتدخين التبغ —مثلا— الذي يبدو أهون المحظورات على القائمة، يرتبط ارتباطا ثابتا بالأدلة بسرطان الرئة والشفتين واللسان والبلعوم والحنجرة والقصبة الهوائية، وحتى سرطان الجلد! فضلا عن ارتباطه بأكثر أمراض الجهاز التنفسي المزمنة.

والذي ثبت مؤخرا، فيما يتعلق باستعمال العقاقير، أنها تؤدي الى نشوء الأمراض النفسية. وعلى ذلك، فان تعاطي العقاقير لا يحل مشكلة من أي نوع، ولكنه يخلق مشاكل لا حصر لها!

* المخاطر الاجتماعية: ترتبط الجريمة ارتباطا وثيقا بتعاطي العقاقير. يضيق المقام هنا عن ايراد الاحصاءات التي تبين ذلك بالدليل الدامغ. هذا فضلا عن خسارة المجتمع لجماهير المدمنين كأيدي منتجة في المجتمع. فاذا اضفت الى ذلك الملايين التي تنفق سنويا لعلاج أمراض المدمنين أدركت مدى الخسارة الاجتماعية المترتبة على ذلك.

والحقيقة أنه يمكن تدوين مجلد كامل عن مخاطر وعواقب تعاطي العقاقير بالنسبة للفرد والمجتمع.

وبعد استعراض هذه الحقائق، يستطيع الانسان أن يستوعب الحكمة في تحريم الاستعمال غير الطبي للعقاقير في العقيدة الاسلامية. ذلك أن الإسلام يحول دون نشوء المشاكل اصلا، بدلا من صرف الوقت والجهد وانفاق المال لحل المشاكل □

الموجب والسالب في الصحافة العربية

بقلم: عيد معمر / دمشق

قليلة هي الكتب في مكتبتنا العربية التي تبحث في أمور الصحافة، وأقل من هذه الكتب الكتّاب الذين حملوا على كواهلهم مهمة متابعة ودراسة الظاهرة الصحفية في وطننا العربي. ومن هذه القلة الاستاذ ياسر الفهد الذي ما زال يتحفنا آنا بعد آن بكتبه التي تدور حول هذه الظاهرة، وآخر هذه الكتب كتابه الموسوم بـ«الموجب والسالب، في الصحافة العربية.»

وينبع اهتمام المؤلف بالصحافة كونها مرآة المجتمع ودليل صحته وعافيته. فنها يمكن أن تحكم على المجتمع وعلى مدى تطوره. فليس بدعا أن يقال اعطني صحافة جيدة أعطك مجتمعا جيدا. وكذلك ليس غريبا أيضا أن يكرس أديب حياته لمتابعة ما يصدر من صحف والتقاط الموجب فيها من أجل تعزيزه وتدعيمه وتسليط الأضواء على السالب من أجل تحجيمه والغائه سعيا للوصول الى صحافة عربية متطورة وعصرية.

هذا ويقع الكتاب في مائتي وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على ثلاثة ابواب اضافة الى تقديم بقلم الدكتور حسام الخطيب ومقدمة للمؤلف يشرح فيها منهجه في الكتابة حول الصحافة العربية هذا المنهج الذي ينطلق من أساس حيادي وموضوعي بعيدا عن الارتباط بأية وجهة نظر مسبقة وهذا ما يكرره المؤلف في كتبه السابقة.

ويشتمل القسم الأول على عدة موضوعات تدور في عالم الكتابة والصحافة وأهم أجزاء هذا الباب الجزء المتعلق بالصحافة العربية ـ واقعها ومستقبلها، حيث يورد المؤلف مجموعة من الملاحظات التي تدل على سعة وعمق الاطلاع وعلى جهد مستمر ونشاط دائم يبذله المؤلف في متابعة كل جديد يصدر في الساحة العربية ويسجل ملاحظاته البناءة على العمل الصحفي العربي «ايجابية وسلبية» حيث ينتهي المؤلف الى التفاؤل بمستقبل الصحافة العربية.

ولا ينسى المؤلف أن يجري مقارنات صحفية كما هي عادته في الكتب السابقة حيث يقارن بين المجلات العربية وعلى سبيل المثال بين مجلتي «العربي» الكويتية و«الفيصل» السعودية، وكذلك بين مجلتي «القافلة» و«الخفجي». ويشير المؤلف الى سمة اساسية تنفرد بها «القافلة» عن جميع المجلات العربية الا وهي اعادة أصل المقال الى كاتبه في حالة عدم الموافقة على نشره، كما انها تدفع المكافأة المخصصة لصاحبها بمجرد الموافقة على المقال. ويعتبر المؤلف هذا الموقف قمة حضارية في التعامل الصحفي، ويدعو سائر المجلات العربية الى مثل هذا التعامل كما يثني على دور القافلة التشجيعي للكتاب.

أما القسم الثاني من الكتاب وعنوانه «آراء في الصحافة والكتابة» فيشتمل على عدد من الموضوعات الهامة التي يحتاج اليها كل من يعمل في هذا المجال، وتدل هذه الأبحاث على سعة الاطلاع والتحليل الموضوعي والفكر النقدي البناء الذي يتحلى به المؤلف. ومما يدعو له المؤلف انصاف حملة القلم حيث يقول: «ان مهنة الكتابة تعاني اليوم من حيف فادح والكتّاب العرب محرومون من سبل العيش الكريم»، وهي دعوة صادقة وكريمة. كما يضم هذا القسم فصلا خاصا بالدوريات التي تصدرها «منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية» في مختلف مجالات التربية — الثقافة — العلوم — اللغة — الاعلام — المعلومات. مسجلا ملاحظاته على هذه الاصدارات مثنيا على مستواها الجيد الرفيع وكذلك الحال بالنسبة لمجلات المؤسسات والجامعات في الأقطار العربية.

أما القسم الأخير من الكتاب وهو من مكتبة الصحافة والاعلام فيحتوي على عدة قراءات في كتب ذات مساس بالصحافة. والمؤلف من البارزين في هذا المجال مثل «الزيات والرسالة» و«تطور الصحافة السورية» و«هيكل والسياسة» و«صحافة الكواكبي»، كما يختار مجموعة من الكتب الاجنبية مثل «اعداد الخبر الصحفي» و«كيف تكتب بحثا علميا وتنشره» وهي من وجهة نظر المؤلف ذات أهمية للصحفي في حين أن القارىء العادي قد لا يجد ذلك مناسبا ومتناسبا مع موضوع الكتاب.

وبالاجمال فان الكتاب رحلة شائقة وممتعة ومثيرة وهو شمعة على طريق السائرين الى مهنة الصحافة. وكما أن المؤلف يحاول أن يجد الموجب والسالب في أعمال الآخرين، فان هؤلاء سوف يبحثون عن الموجب والسالب في عمله فلكل عمل موجب وسالب، والكمال لله وحده □

أيقاعات.. الطين.. والحزن.. والسراب

عرض: عبدالله بن أحمد الشباط/الخبر

قد يلاحظ القراء معي طول هذا العنوان الذي اختاره الشاعر عبدالله بن سالم الحميد لمجموعته الشعرية.. وهذا العنوان يدل بطبيعة الحال على ما أراد الشاعر أن يعبر عنه في تلك المجموعة التي تمتزج فيها الحداثة بالأصالة.. وتختلط فيها التعابير العازفة على أوتار الجرح.. والناهلة من دماء القلب.. والتي أخذت تحتك بعظام الجمجمة الى حد الانفجار. الا أن الشاعر الهادىء الطبع يكبح جماح تلك التفاعلات ويهدىء من فورتها.. ويحيطها بذلك السياج من القوافي والأوزان لتكون مقطوعات من العزف المنفرد الذي يضع الشاعر سلمه الموسيقي.

يقول وهو يتحدث بتلك النبرة الهادئة:

«لن أزعم لنفسي أنني وصلت الى مرحلة الرضى الكامل والقناعة المطلقة بأعمالي الشعرية.. ولن أنسج لشخصي المتواضع هيكلا اسطوريا مأخوذا بسياج التبجح والادعاء.. وانما أطرح تجارب واقعية انبثقت من معاناة صادقة شطحت عن كل احتمالات التأثر واطواق التبعية.. اقتحمت مملكة الشعر منبثقة من اعماق الوجدان فامتزجت بقناعة الوعي مستشرفة أنداء التواشج النبيل مع كل توتر نابض فعال.»

هذا ما قاله الشاعر في مقدمة المجموعة معبرا عما يريد أن يطرحه امام القراء بكل صدق ووضوح دون تبجح أو غرور.. ودون تواضع أو مسكنة.. بل هو يرسم الحقيقة.. حقيقة مشاعره وانفعالاته التي سكبها في تلك القوالب والضيع..

وأراني مجبرا على الدخول مع الشاعر في أعماق هذه المجموعة لأطل منها على القراء بما يوحي بصدق معاناة الشاعر وحقيقة أقواله وإلا فان ذلك محض ادعاء وغرور لا محل لهما في عالم الشعر..

وحتى لا آخذ القارىء في متاهة البحث هذه على أن اوقفه على أول قصائد هذه المجموعة (الأصدقاء).. ففي هذه المقطوعة يرسم تلك الصورة الرائعة للأصدقاء.. صورة كلها اشراق ومودة واعتزاز:

أحباء نفسي.. واهداب عيني
ووشم المودة في الحاجبين
أتيت اليكم خلي الوفاض
وعدت غنيا بكم مرتين
سكبتم بنفسي رحيق الوفاء
واشرعتموا لي هوى الخافقين
فكنتم سروري ودفق شعوري
وهاجس ما بين نفسي وبيني
ففيكم أعيش.. وفيكم أهيم
وفيكم أمزق شمل اليدين

وفي المقطوعة «من تداعيات الانتماء» نرى الشاعر يخاطب أباه مقدما له الحفيد الذي يحمل اسمه.. وما بينهما من صفات مشتركة.. ويستشرف المستقبل لذلك الحفيد الذي لا يريد له أن يرتدي ثوب المذلة والخنوع والاستكانة للرخاء والحنان وخلو البال.. فيخاطب اباه:

دثـره بالقسمـات
طبعه بالبصمات.. والذكـرى
وشيئا مـن رؤاك
علمـه مـا غرست يـداك

ثم يتساءل في خوف:

أتـراه ينعـم بالحنـان
ويرتـدي حلل الرخـاء
ويعيش خلوا.. من طموح الكبريـاء؟

وتختلط مشاعر الأبوّة بمشاعر البنوّة لتتحول لدى الشاعر الى نسيج وطني يرى من خلاله القدس ويشم من نفحاته عطر حطين:

أبت الابـاء
اليـك
لم يبق في نبضي سوى حبر ومـاء
لم يبق في وهج الحروف غير الدعـاء
لم يبق — لولا القدس— في رمقي دماء
ابتي.. ابت الأباء
شكوت الجريح الى الجريـح
عن ذلك الجبن الكسيح
والصمت بين المذلة والردى
أأطل صوتا؟.. أم صـدى
أم اجتلي شرف الفداء.. وافتدي
واعطر الذكـرى ليوم الموعـد
حطين!! حطين عفـوا سيدي

وفي هذه المسيرة الوطنية يخاطب البطل «بسام الشكعة» الذي وقف في وجه الصهاينة وأبى الخضوع أو الخنوع:

اضرابـك تصمـيم الأحـرار
وجراحـك نبض للثـوار
وشموخـك نصـر وتفـان
يتسامـى برحيق الاصـرار

واذا أردنا أن نتجول داخل وجدان الشاعر ونسمع نغمات عواطفه.. سنجده يتحدث بلغة واضحة ليس فيها لبس ولا خوف:

كان اختيارا باسما.. همست به.. قالت: متى؟
ورسمتها في داخلي.. حلما يؤرق مهجتي.. أملا جريحا مثخنا
ومحمد كان الصديق، السوسنا.. زرع النواة وما انثنى

وتلكأت بعض الخطى وتشنجت لكنها كانت تعمّق حبنا
وتعطلت لغة الكلام وتدحرج صاخب.. فتمكنا
حتى البكاء — هنا — تحشرج وانشطـر
لم يعرف الخطب الأمـرّ.. حتى أنـا

ويمضي في مخاطبة الحبيبة بنفس الهدوء الذي استمده من ذلك اللقاء البريء.. وتلك الراحة التي احسها بعده:

تحكين لي.. يا بهجة الأمـل المضمخ بالمنـى
وعـدا.. ووعـدا آخرا.. وتعهـدا وتحننـا
حضن الجـراح.. وغـال همّاً مزمنا

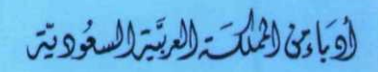
لكن مهما تكن توجُّهات الشاعر وطموحاته وما لديه من فورة وطنية أو عاطفة مشبوبة فانه يظل معلقاً بخيط الأمل من الله سبحانه وتعالى.. تجذبه تلك الأنوار الايمانية التي تضيء بداخله.. فيتوجه الى خالقه:

إنما شمس ربيعي في رضـاك
في خيـام مـن ضيـاك
وانبلاجـات صفاء وارتقاء صاغه —ربي— علاك
يا إلهي.. انت ادرى انني —المسكين— لاه
بيد أني يا حبيبي طالما احتاجت يداي لخيوط من نجاه
طالما اشتقت الى عفـو الالـه.

ومن منا لا يرجو عفو الإله.. انه ليس شوقا بل هو حاجة ملحة لكل مؤمن.. وهي الأمل الذي يعقد عليه الرجاء.. فالرجاء في عفو الله ورحمته.

وقد يعجب الشاعر لأنني رتبت بعض أبياته بهذا الشكل المنشور بخلاف ما هي عليه في الديوان.. وانما قصدت بذلك أن أدلل على أن الشعر الحديث لا يستلزم تقطيع الأبيات ونشر الكلمات وبعثرتها على الصفحات.. انما الحداثة والأصالة يختلطان في لحمة العمل الفني فالأصالة تمده بالقوة وترسي له القواعد المتينة.. والحداثة تجعله ظاهرا في اطار العصر قريبا من معطياته.

والخلاصة ان عبدالله بن سالم الحميد كان يريد أن يقول أشياء كثيرة الا أن تقيده بقوانين الشعر جعله يقف عند رؤوس المواضيع دون محاولة التوغل فيها.. غير أنه استحوذ بهذه الوقفات على اعجاب القارىء واكباره.. وخير الكلام ما قل ودل □





بقلم: د. مصطفى ابراهيم حسين / الرياض

هو عبدالعزيز احمد عبدالكريم الرفاعي. ولد بمدينة «املج» الساحلية في منطقة الحجاز، في شهر رمضان لعام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م*. والتحق بالمدرسة الابتدائية سنة ١٣٥٨هـ، وهو في نحو السادسة عشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد العلمي بمكة المكرمة. وليست لدينا معلومات دقيقة عن أسرة الرفاعي، اللهم الا النثار القليل. فجده لأمه هو السيد عبد الفتاح الرشيدي الذي أنشأ مكتبة شهيرة بمدينة جدة أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وكانت المكتبة عند بيت بانا في محلة الشام، ثم اتسعت فانتقلت الى سوق الندى امام مطبعة الفتح.

وكان الشيخ الرشيدي —يرحمه الله— يجلب الى مكتبته الكتب من مصر، كما كان يزودها بما يشتريه من المزادات، ومن الحجاج. ويبدو أن نشاط الجد كان له أثره في ارتباط الرفاعي بالكتاب: قارئا عالما، وصاحب دار نشر معروفة في الرياض، ومساهما في انشاء مجلة (عالم الكتب)، ومصدرا لسلسلة (المكتبة الصغيرة).

عمل الرفاعي بالتدريس لمدة عام واحد في (المدرسة العزيزية)، بمكة المكرمة. وقد ظهرت في تلك الحقبة بوادر اهتماماته العلمية، اذ كان مولعا بالسيرة النبوية، التي تولى تدريسها لطلابه، ثم ظل هذا الاهتمام ملازما له فيما بعد.

وقد أولى الرفاعي الحركة الفكرية والأدبية في المملكة وجوها شتى العناية: ما بين المحاضرة والتأليف. وأبرز نشاطاته يتمثل في ندوته الأدبية التي دأب على عقدها في بيته بالرياض مساء كل خميس، بشكل ثابت منتظم. وتضم عادة لفيفا من العلماء، والمهتمين بشئون الفكر والأدب، من السعوديين و الوافدين. وهي أول ندوة أدبية خاصة تعرفها مدينة الرياض، كما تعد واحدة من المعالم الفكرية البارزة في العاصمة السعودية وهي تقترب من العشرين سنة منذ بدأها.

تكريم الرفاعي

كرمت الرفاعي جهات علمية وأدبية، على المستويين العربي والوطني، فقد منحته تونس في عام ١٩٧٠م وسام الاستحقاق الثقافي، هذا الى جانب تكريم «رابطة الأدب الحديث» بالقاهرة بمنحه وثيقة التقدير الأدبية، كما نال «درع الجامعة» من جامعة الملك سعود عام ١٤٠١هـ، وبراءة تكريم الأدباء السعوديين مع ميدالية الاستحقاق من وزير المعارف عام ١٣٩٤هـ.

مشاركاته الأدبية

شغل الرفاعي عضوية الكثير من الهيئات الأدبية والاعلامية وشارك في مؤتمرات ثقافية. منها عضويته بمجلس الاعلام الاعلى بالمملكة، ودارة الملك عبدالعزيز، التي هي بمثابة مركز للأبحاث التاريخية، وتصدر عنها مجلة فصلية محكمة. وهو أيضا عضو لجنة الاعداد لمؤتمر الأدباء السعوديين بمكة، ومجالس ادارة بعض الصحف والمجلات.

* ذكر الدكتور بكري شيخ امين ص/٣١٣ في كتابه «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» ان الرفاعي ولد بمكة. وما اثبتناه منقول من خط الرفاعي نفسه على غلاف كتاب له.

أما المؤتمرات الأدبية التي شارك فيها، فمنها، مؤتمر في لبنان (عام ١٩٥٦م)، وآخر في الكويت (١٩٥٨م)، ثم في العراق (عام ١٩٦٩م)، وتونس (عام ١٩٧٠م) والجزائر (١٩٧١م). كذلك نشرت صحف ومجلات عربية مختلفة مقالات بقلمه، وأشعارا من ابداعه، منها مجلة «الكاتب» المصرية، و«الفكر» التونسية، و«الأديب» اللبنانية، و«الرسالة» المصرية، و«المنهل» السعودية، وصحف سعودية مختلفة كالرياض وعكاظ والندوة والمدينة والقافلة.

وقد أصدر الرفاعي — عن دار الرفاعي للنشر — سلسلة (المكتبة الصغيرة)، التي تقدم المعرفة الجادة في كتيبات صغيرة وجيزة المحتوى، ولكنها في الوقت نفسه، جادة رصينة، ترضي المستويات الثقافية المختلفة، وتلبي حاجة العصر، من حيث قدرتها على العطاء السريع، وفي زمن قصير، على نحو ما فعلت بعض دور النشر العربية، ومنها دار المعارف بالقاهرة، حين أصدرت سلسلة «إقرأ»، والهيئة المصرية العامة للكتاب، باصدارها «المكتبة الثقافية»، وهي كتب ساهم في تحريرها اعلام الفكر في الوطن العربي.

وقد أسهم الرفاعي بنفسه في تحرير بعض حلقات «المكتبة الصغيرة»، مما سوف نعرض له في هذه الدراسة.

مؤلفـــاتـه*

١ — توثيق الارتباط بالتراث العربي، صدر في عدة طبعات، آخرها الطبعة الخامسة عام ١٣٩٧هـ وهو — في الأصل — بحث تقدم به المؤلف الى مؤتمر الأدباء العرب السابع في بغداد عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م وناقش فيه المؤلف خصائص التراث العربي، ووسائل الخصوم في محاربته وكيف يستطيع الأديب عقد صلة وثيقة بين الأدب العربي وتراث أمته.

٢ — جبل طارق والعرب، وهو بحث تاريخي محض، تناول علاقة العرب التاريخية بجبل طارق ودورهم في عمرانه على اختلاف عصور الحكم العربي للأندلس وقد اعتمد الباحث مصادر تاريخية هامة، في الصدارة منها كتاب (تاريخ المن" بالامامة) لابن صاحب الصلاة، واستطاع — عن طريق هذا المصدر الهام — ان يستدرك على بعض المؤرخين المعاصرين اوهاما وقعوا فيها.

٣ — خمسة أيام في ماليزيا، وهو كتيب في «أدب الرحلة»، صادر عن «المكتبة الصغيرة»، شأن الكتابين المتقدمين.

٤ — كعب بن مالك الصحابي الأديب، وهو ترجمة أدبية للصحابي الشاعر، صدر في سلسلة «المكتبة الصغيرة»، وتعد أول ترجمة أدبية للصحابي الشاعر تصدر في كتاب مستقل، وتولي اهتماما بنثره.

٥ — ام عمارة الصحابية الباسلة، وهو ترجمة لصحابية جليلة ذات بطولات مثيرة للاعجاب، فقد ذهبت مع جيش المسلمين، لتمرض جرحاهم، وتسقي عطشاهم، ولكنها انخرطت تقاتل مع المقاتلين في غزوة «احد»، وغيرها من الغزوات.

٦ — من عبدالحميد الكاتب الى الكتاب والموظفين، وهو نص محقق لرسالة كتبها عبدالحميد الكاتب (ت ١٣٢هـ) احد كتاب الأمويين، وقد أثبت المحقق النص ورأى — على حد قوله — ان يقسم الرسالة الى مواد، وهو ما نخالفه فيه، كما قرن النص بترجمة لعبدالحميد الكاتب وتناول النص بالتحليل.

٧ — الحج في الأدب العربي، وهو مبحث طريف تناول — ربما لأول مرة — دراسة أثر الحج في كل من الشعر والنثر قديما وحديثا، كما لفت الانتباه الى مبحث طريف وهو (أثر الحج في حفظ التراث). ألقاه المؤلف في مؤتمر الأدباء السعوديين في جامعة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٤هـ، وبعد ذلك نشره.

٨ — ضرار بن الازور الشاعر الصحابي الفارس، وهو جزء من محاضرة، كان المؤلف قد ألقاها في مدينة (عنيزة)، ثم شاء له أن يطورها، ويصدرها في كتيب مستقل. وقد ذهب أكثر الكتيب في تقديم سيرة الصحابي الجليل، وذهب أقل القليل منه الى دراسة شعره، وتقديم نصوص منه، مع قلة ما حفظت لنا المصادر المختلفة من شعره.

٩ — خولة بنت الأزور، وهو ترجمة لشخصية غير حقيقية، زعمت الروايات انها كانت صحابية، وفارسا بين الفرسان، كما اشتهرت بمراثيها في اخيها ضرار شهرة الخنساء في رثاء صخر. وقد أخرج المؤلف هذه الشخصية من دائرة الحقيقة والتاريخ، ليدخلها في اطار الاسطورة وموروث (الحكاية الشعبية) التي حفل بها كتاب (فتوح الشام) المنسوب خطأ للواقدي، وهو المصدر الوحيد لهذه القصة الاسطورية، كما أثبت المؤلف بمنهج قائم على دقة الاستقصاء والتحقيق.

١٠ — الرسول كأنك تراه، حديث ام معبد: ويضم الكتيب نصا محققا موثقا لحديث أم معبد، وتخريجا له في شتى المصادر التي أوردته، وشرحا لغرائبه من خلال استعراض المعاجم اللغوية التي أوردته، وهي تشرح الفاظا ضمها الحديث. كما وقف عند الحديث وقفة فنية حاولت أن تستقصي جوانب الجمال من ألفاظه وتعبيره، هذا الى التعريف بام معبد، وبموطنها المسمى (قديد).

وبعد. فهذا عرض موجز لمؤلفات الشيخ الرفاعي، وتسلمنا النظرة فيها الى جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي:

١ — انها — كما مر — لا تعدو أن تكون كتيبات، وان ليس من بينها كتاب واحد مطول. غير أنه لا ينبغي أن يقاس جهد العالم وقدره بالكم والحجم. فقد نجد في الكتاب الصغير ما نفتقده في الكبير، بل قد نجد من المنهجية والعمق

* صدرت كل هذه الأبحاث في سلسلة «المكتبة الصغيرة».

والطرافة فيه ما لا نجده في الضخم الكبير. وما ابتليت حياتنا العلمية الراهنة بمثل ما ابتليت بداء (الكم والحجم). فالكتاب قد يقع في خمسمائة صفحة أو تزيد، الى ما يعلو غلافه واخراجه من الوسامة، فان قرأته وجدته حشوا ونقولا تستغرق أكثر الصفحات.

والبلوى في رسائلنا الجامعية اشد وانكى، فهي في كثير من الاحيان مجلدات ضخام، وهي مع ذلك محنة لحاملها، ومحنة لقارئها ومناقشها.

٢ — تنوعت هذه الكتيبات بين النص المحقق، والدراسة التاريخية العامة، والترجمة التاريخية والبحث الأدبي، والابداع الأدبي ممثلا في كتاب «خمسة أيام في ماليزيا»، وهو في (أدب الرحلة).

٣ — ان الطابع الاسلامي هو الطابع الغالب على هذه البحوث، فضلا عن الهدف التهذيبي التربوي، من خلال وضع القدوة والاسوة ماثلة مجلوة الصورة أمام الأجيال الاسلامية الراهنة. ان الأمة التي تنسى تاريخها هي أمة (فاقدة الذاكرة)، تائهة بين ركام الشرق وحطام الغرب، ولا خلاص لنا من الضياع الذي نتخبط بين مهاويه الا حين نستعيد ذاكراتنا من ماضينا.

وهذا الهدف واحد من المرتكزات الاساسية لرأي الرفاعي في الأدب. يقول في مقال له بعنوان «حول رسالة الأدب»: «يقف أدب التوجيه ليؤدي مهمته، ليفيد ويدفع ويوجه ويرشد.. ومعنى هذا — في نظري — انه لا يمكن أن نقول أن الأدب يجب أن يكون للأدب فقط، بل الصحيح أن نقول: ان الأدب حياة للحياة.. اما أن يؤثر الأدب في الكافة، وان يرفع مستواهم، فهذا ما يجب أن يكون، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا. وهذا ما ينبغي أن نعمل من أجله..».

المنهج والتصور

يرتكز البحث التاريخي لدى الرفاعي على هدف، فهو — اذن — ليس مقصودا لذاته، بل هو — كما أسلفنا — وسيلة لهدف هو بعث الوعي التاريخي لدى شباب الأمة وايقاظ حسه واحساسه على صفحات مجلوة من القدوة والاسوة، ورسم معالم الطريق نحو المستقبل. يقول المؤلف في كتابه (توثيق الارتباط بالتراث العربي)، عن التاريخ والتراث: «وانا أؤمن أشد الايمان بأهميته، وبفعاليته في بلورة الكفاح العربي، وبصلته في تكوين اللقاء المنشود بين الأمة العربية وبين المجموعة الاسلامية في كل مكان، ذلك لأن التراث العربي انما يشكل تراثا اسلاميا، لغته هي اللغة العربية».

وفي موضع آخر يقول عن التراث: «.. وهو موضوع حيوي وثيق الصلة بالظروف العصيبة التي تجتازها الأمة العربية، خاصة فيما بعد حزيران ١٩٦٧. ذلك لأن أية أمة تحرص على أن يكون لها كيان خاص بها، وشخصية بارزة المعالم، لا بد وأن ترتكز على تراث تستمد منه عزيمتها، وتلتف حوله، وتنطلق من مركزه، وتبلور مستقبلها على قواعده..».

وهذا المعنى وهو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح: (امتدادية التاريخ)، يتردد كثيرا في كتابات الرفاعي، فهو يقول — مثلا — في مقدمة ترجمته لأم عمارة الصحابية الباسلة، والمثل النبيل في الجهاد: «ونحن في وقت احوج ما نكون فيه لضرب الأمثلة للجهاد.. لندافع جميعا عن مقدساتنا، ونسترجع الحقوق التي استبيحت».

على أن هذا الهدف الذي اطلقنا عليه (امتدادية التاريخ)، كان له تأثيره في توجيه هذه البحوث نحو الوجازة واليسر، بحيث يستطيع القارىء أن يطالع البحث في جلسة واحدة. بالاضافة الى اتجاه الكاتب نحو اختيار موضوعات محددة، نحس بأنها أوثق ارتباطا بالهدف الذي ما يزال يسعى نحو تحقيقه.

وهنا تبرز حقيقة ترتبط بسمة التبسيط التي توخاها الكاتب: وهي: أنه لم يتدن بتبسيطه الى (السطحية والضحالة) في الأغلب الأعم من بحوثه. ونقول «في الأعم الأغلب» لأن بحثا مثل (توثيق الارتباط بالتراث الأدبي) يمثل صرخة مخلصة. وقد تميزت سائر بحوثه بالمنهجية وعمق التناول.

سمة أخرى في منهج الرفاعي، وهي (التحقيق العلمي) لما يعرض له من مسائل التاريخ. ولا نعني — فقط — تحقيق النصوص التي ينشرها. وتلك السمة وسابقتها تحملان دلائل الرصانة والعمق في أبحاث الرفاعي على صغرها وضآلة حجمها. فمن ذلك بحثه (خولة بنت الأزور) الذي أسلفنا الاشارة اليه بايجاز. اذ أوقف الباحث كل بحثه ليثبت موضوعيا أن (خولة بنت الأزور) التي تتناقل الناس حكايتها، ليست شخصية حقيقية، بل هي شخصية وهمية، ولدها خيال القصاصين وقد تتبع الكاتب القصة في أناة واستقصاء ومناقشة وتحليل لجوانبها ومصادرها، وانتهى بنا الى حقيقة هامة، وهي أن كتاب (فتوح الشام) وهو المصدر الوحيد لها، اما بقية المصادر فهي ناقلة عنه آخذة منه. أما كتب (الصحابة) وهي الحجة في الموضوع، فلم يرد فيها أدنى ذكر للشخصية وحكايتها برغم شيوعها وتناقلها. كما خلت منها أيضا كتب السيرة والأدب والتاريخ.

كذلك سعى الكاتب الى توهين كتاب (فتوح الشام) لكونه من كتب القصص، التي يطالعها الناس للتسلية، أو للعظة والاعتبار. فهو اذن ليس مصدرا تاريخيا يوثق به، ويعتد بما ورد فيه. اما كتاب (الرسول كما تراه)، فقد سعى الكاتب الى تخريجه بما يؤكد عزوه الى ام معبد، فرجع في ذلك الى مصادر معتمدة منوعة، هي كتب السيرة، وكتب التاريخ، وكتب الشمائل.

وقد رجع الكاتب الى كتب الصحاح الستة المشهورة، فلم يجده في أي منها، ولكنه وجده في كتاب (المستدرك على الصحيحين) للحاكم، واورد رواته حسب سنده، ثم أورد قول الحاكم: «هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه»: يعني البخاري ومسلم في الصحيحين. ثم نقل دلائل الحاكم على صحة

الحديث. وهي دلائل استنبطها على أساليب الرواية والرواة للسنة المطهرة، ودراسة للرجال، ضعفا وقوة. كما رجع الى الامام الذهبي رحمه الله، في تلخيصه لمستدرك الحاكم، وتعقب تعليقه على الحاكم النيسابوري، كما تعقب الرواة في سند الحديث، وتتبع اختلاف الروايات في مصادر مختلفة، فناقش ووازن وسجل الملاحظات.

في البحث الأدبي

ولا تخلو كتب البحث الأدبي لديه من الخصائص المنهجية التي اتسمت بها كتبه في التاريخ، وان تراجمه الأدبية — بالذات لم تخل من المادة التاريخية، فهو في تلك التراجم معني بدراسة النسب والقبيلة واطوار الحياة، هذا بالاضافة الى استخلاص ملامح الشخصية الأدبية المبدعة، مع ملامح الشخصية التاريخية، وكتابة (كعب بن مالك الصحابي الأديب) خير مثل لذلك المنهج. ويبذل الرفاعي جهدا خاص لجمع آثار الشاعر. فعل ذلك في خاتمة ترجمته (لكعب بن مالك)، وفي خاتمة ترجمته لضرار بن لازور، برغم قلة شعره.

ومهما قيل عن (المنهج التاريخي) في البحث الأدبي، واتهام اصحابه بالبعد عن جوهر الأدب وطبيعته، فسوف يظل هذا المنهج وطيدا راسخا بين شتى مناهج البحث الأدبي، وسوف تظل ذرائع وجوده ومسوغاته تتحدى خصومه، الذين يرون المنهج التاريخي متعارضا مع المنهج الفني، وذلك بما يلقيه التاريخ من اضاءة على النص الأدبي، في مضمونه وخصائصه، فضلا عن تفسيره للكثير من خصائص الأديب المبدع ذاته.

ولم يهمل الرفاعي المنهج الفني في تراجمه الأدبية، الا أن المنهج التاريخي ظل في دراساته الأكثر وجودا وتميزا، وخاصة في بحثه عن (كعب بن مالك).

ويستهدف الرفاعي في بحوثه الأدبية كل طريق جديد من الموضوعات، فدراسة الأديب الصحابي: كعب بن مالك، في حدود ما نعلم، غير مسبوقة الا ما يرد من مقالات قصار، او بحوث وجيزة في سياق كتب تاريخ الأدب العربي في صدر الاسلام، كما عند شوقي ضيف، واحمد الشايب.

أما بحثه (الحج في الأدب العربي)، فهو — على وجازته — بحث يتميز بميزتين، هما الطرافة من جهة والجدية من جهة أخرى، كما أنه يفتح امام الباحثين الشبان — بخاصة — ابوابا جديدة للبحث والدراسة، وبخاصة موضوع (اثر الحج في الشعر الجاهلي)، و(اثر الحج في الشعر الاسلامي). و(ظاهرة الحنين الى الأماكن المقدسة)، التي اتسع بها الشعراء في القرن السابع الهجري وما بعده.

ويلفت الرفاعي انظار دارسي الأدب الاسلامي القديم الى نص نثري هام لكعب بن مالك، وهو تسجيل مالك لتجربة المقاطعة (التي فرضها النبي صلى الله عليه وسلم، واقتدى به فيها سائر المسلمين) على كل من كعب ومرارة بن الربيع القمري، وهلال بن أمية، حين تخلفوا — ثلاثتهم — عن رسول الله وصحبه في (غزوة تبوك). وقد نزل فيهم قرآن. والنص يستبطن اعماق كعب، ويشخص ما انتابه وزميليه من الاحساس بالضيق والندم، ويتتبع ذلك في عفوية ودقة تصوير. ومع أن الرفاعي لم يتناول النص بالتحليل الأدبي، الا أنه لفتنا اليه، ونبهنا لقيمته الفنية. فهو من النصوص القليلة ذات الطابع التحليلي.

كاتب الرحلة

مضى بنا القول الى أن للرفاعي كتابا في (أدب الرحلة) عنوانه (خمسة أيام في ماليزيا)، سجل فيه انطباعاته في أيام خمسة قضاها في العاصمة الماليزية (كوالا لامبور) مع صديقه الأديب السعودي (علي حسن فدعق)، بدعوة من السفير الماليزي بالمملكة لحضور الاحتفال ببعض المناسبات الوطنية هناك.

ونود أن نلفت انتباه القارىء — هنا — الى أن الرفاعي قد كتب — عدا رحلة ماليزيا — رحلات اخريات في الشرق الأقصى، سجل فيها انطباعات عن رحلات له الى بعض بلدانه.

ولا تعدو رحلته الى ماليزيا أن تكون — على حد قوله — مجرد انطباعات شخصية، وتصوير لملامح خاطفة عن مظاهر الحياة والنهضة في ماليزيا، فهي «نظرات عابرة هنا وهناك، سجلها قلم عجل».

ويمتلك الرفاعي في نصه ذاك مقدرة حسنة على «التصوير والوصف والقص»، وذلك للمعالم، والمواقف والشخصيات، على نحو يحملك حملا على معايشته ومشاركته، خيالا وفكرا ووجدانا. ويتميز في أسلوب الأداء بالسرد العفوي الذي لا يقف وقفات متفلسفة، تعطل سريان الحدث أو المشهد.

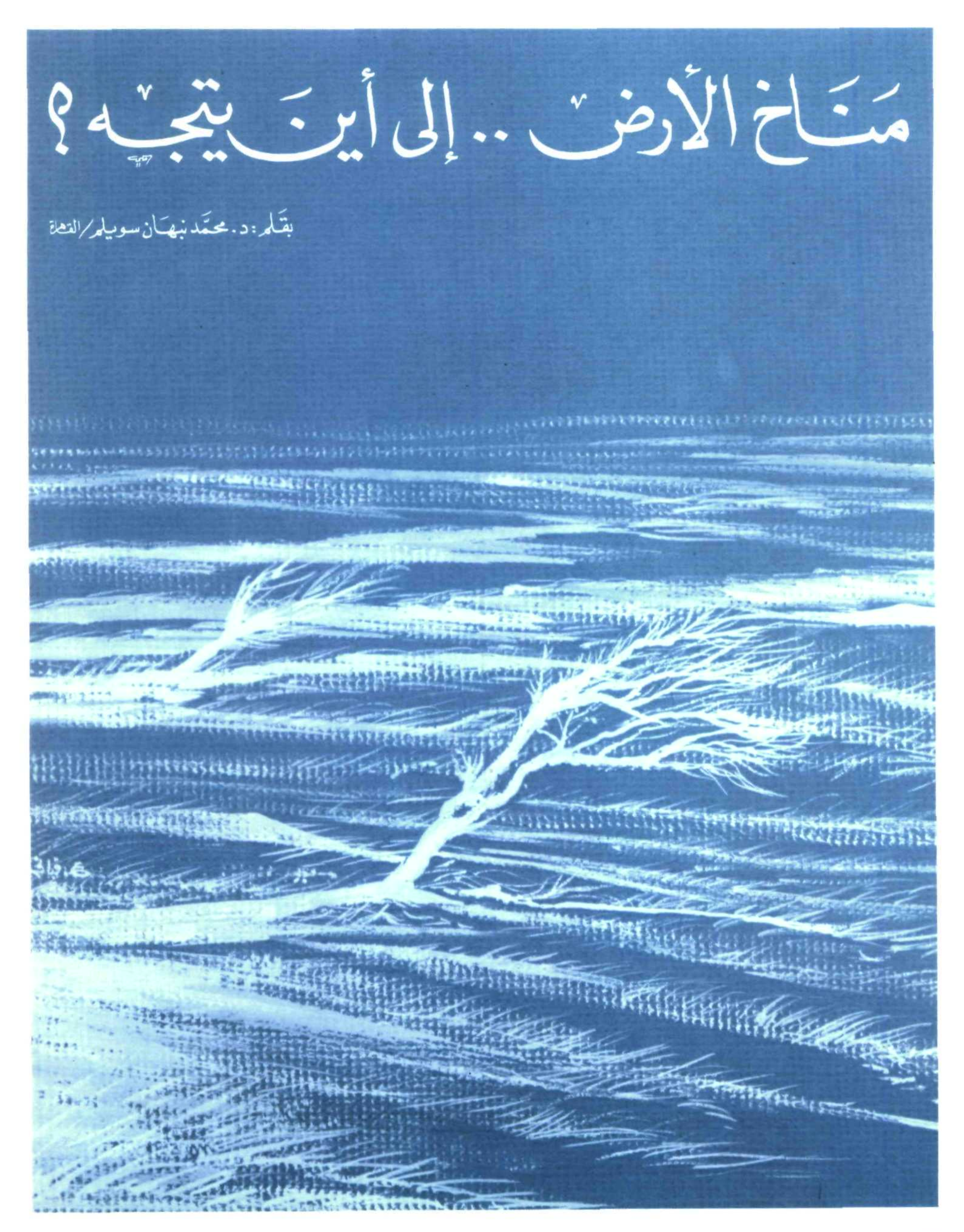
كما يمزج تجربته الخاصة بمرئياته في ماليزيا، في المباني ومظاهر الطبيعة وملامح الناس وايقاع الحياة، فيستدعي الكامي المختزن من ذكرياته في الحجاز، في مآكل الناس ومشاربهم وملابسهم وعاداتهم.

ولا يعدم القارىء — وهو يطالع رحلة الرفاعي — روح الفكاهة متناثرة هنا أو هناك. وهي فكاهة محببة طلية: حين يصور لنا تجربته مع (حلاق كوالا لامبور)، فيقرنه بما عرف في الآداب العالمية عن (حلاق بغداد)، و(حلاق اشبيلية)، كما يضحكنا من طريقة نطق المرافق الماليزي لبعض الكلمات العربية، فضلا عن محاولاته البالغة الجرأة لنظم شعر بالعربية. كما تطالعك شخصية الأديب السعودي الراحل احمد قنديل (ت ١٣٩٩هـ) وهو أحد ظرفاء الأدباء في الحجاز في العصر الحديث، بما في شخصيته المرحة الذكية من ملامح ابن البلد. وكان قنديل — يرحمه الله — يرافق الرفاعي في رحلته تلك.

وما يزال المهتمون بالفكر والأدب، يترقبون المزيد من نتاج الرفاعي، امد الله في عمره □

مَنَاخ الأرضْ .. إلى أينَ يتجِـهْ ؟

بقَلم : د. محمَّد نبهَان سويلم / القاهرة



تمر أيام الشتاء وكذلك أيام الصيف مخلفة ورائها عدة أسئلة محيرة الاَّ أن أيام الشتاء تجعل الأسئلة حولها تزداد سنة بعد سنة،من ذلك مثلا أنه لماذا يتغير المناخ بصورة حادة لم تكن مألوفة من ذي قبل؟ في شتاء ١٩٨١م هاجمت ولايات الغرب الاوسط الامريكي أعاصير ثلجية عاتية لم تشهدها من قبل وقد ظلت المنطقة لعدة شهور شبه مدفونة تحت غطاء ثلجي أبيض، وكادت مظاهر الحياة أن تصاب بالشلل. ثم اجتاحت الثلوج والاعاصير اوروبا بأكملها وامريكا بامتداد رقعتها ثم تسللت الى سوريا وفلسطين ومصر وسقطت الثلوج على اراضيها كأول سابقة في التاريخ القريب.

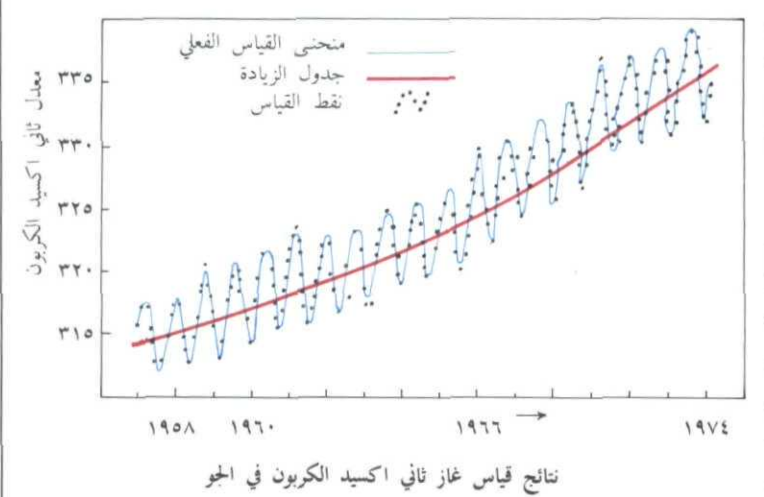
الطقس كما نسمع في الاذاعات أو نقرأ في الصحف عبارة عن مزيج يعبر عن درجة الحرارة والرطوبة والرياح في فترة زمنية قصيرة تقاس بالأيام أو الأسابيع. اما المناخ فهو تداخل هذه المتغيرات وتبادل التأثير فيما بينها عبر سنوات عديدة قد تصل الى عدة قرون واحيانا الى أزمان أكثر من ذلك تؤثر بالتدريج على شكل الحياة فوق سطح الأرض. ولهذا يحاول العلماء الآن ومنذ سنوات طويلة مضت صياغة نماذج لقواعد التغيرات المناخية في محاولة للتنبؤ المسبق بها درءاً لأخطار تقلبات المناخ الأرضي وتحسبا ليوم لا يعلم الانسان فيه أين يكون وكيف يكون.

لقد شهد العالم تقلبات مناخية حادة خلال السنوات العشر الماضية أدت الى كوارث فادحة في مناطق شاسعة من العالم وهددت تلك التقلبات بكوارث أكثر فداحة في مناطق أخرى من العالم. فقد بدأ الجفاف والعطش يزحف من افريقيا الى جنوب آسيا مؤديا الى مجاعات وخسائر في العنصر البشري والمراعي وحيوانات الحقل وامتد الجفاف الى شبه القارة الهندية اعقبه فيضانات جارفة ثم سنوات أخرى من الجفاف صحبتها موجات من الزلازل. وامتد الجفاف الى اوروبا كما تركت انجلترا في سلسلة غير مألوفة من تقلبات مناخية حادة تمثلت في موجات الجفاف والبرودة. وحدث الشيء نفسه في امريكا وروسيا والصين ودول امريكا اللاتينية، مما أحدث احساسا شديدا بالخطر دفع بالعلماء الى بذل مزيد من الجهد في برامج بحوث المناخ وما عداها من برامج.

الغريب في نتائج البحوث أنها جاءت متضاربة الى درجة ملفتة للنظر، فمن جانب أظهرت نتائج بعض البحوث أن الجفاف آت لا ريب فيه، الا أن علماء آخرين رأوا أن العكس هو الصحيح وأن غالبية مناطق العالم ستكون أكثر رطوبة. وان اجمعت الدراسات على القاء اللوم على كاهل الانسان لأنه المخلوق الذي تحول علمه الى سلاح ارتد الى نحره وأحاط بعنقه، أيا كانت مظاهر هذا الأثر السيء للعلم.. والتقدم التقني.. جفافا أو جليدا فكلاهما سيزيد الحياة صعوبة على وجه الأرض.

ولنا أن نتساءل كيف؟! وتتمحور الاجابة حول سبب واحد ألا وهو زيادة نسبة غاز ثاني اكسيد الكربون في جو الأرض، وذلك نتيجة لازدياد الانتاج الصناعي وحرق الفحم والبترول مع استئصال الغابات العظمى في اوروبا وامريكا الشمالية والجنوبية مما أدى الى تناقص كمية الاوكسجين في الغلاف الجوي. أي أن الانسان غيَّر التوازن الطبيعي الذي أوجده الله بحساب وقدر موزون. فيوم أن خلق الله الأرض جعل فيها قدرا محسوبا من الأوكسجين أو بالأحرى خلق مصادرها معها،وتتمثل هذه المصادر في البحر والشجر الأخضر. فالماء يثبِّت غاز الكربون ويجعله لا ينفلت عياره، وما نفعله الآن أننا نطلق هذا الغاز الى الجو دون أن يجد نباتا كافيا يمتصه ويحوله الى سكريات وألياف وجذوع واوراق بسبب ما فعله الانسان من اجتثاث الشجر.

ويؤيد هذه النظرية أحد أشهر اساتذة علم المناخ في السويد فهو ينادي بوقف هذا التصرف البشري المخلِّ بتوازن المناخ. فالدراسات الجادة عن نسبة غاز ثاني اكسيد الكربون سجلت باستمرار زيادة ملحوظة منذ بداية هذا القرن.



نتائج قياس غاز ثاني اكسيد الكربون في الجو

وقد يتساءل القارىء وكيف عرف الانسان ذلك منذ بداية هذا القرن ولم يكن لديه التطور العلمي الذي يسمح له بوجود أجهزة تجري مثل هذه القياسات؟ وهذا التساؤل عن معرفة الطريقة التي اعتمدها العلماء في تحديد نظير الكربون المشع الى النظير المستقر في الحلقات السنوية التي نراها في المقطع الأفقي للحاء الاشجار، والتي يمكن ارجاعها الى تواريخ معروفة. وباستخلاص نسب النظيرين يمكن تحديد كمية الغاز في الجو خلال فترات سابقة منذ بدء استخدام أنواع الوقود استخداما واسعا في اواخر القرن الماضي وحتى عصرنا الراهن. ويقول أحد علماء جامعة وايكاتو في نيوزيلاندا، بعدما درس حلقات لحاء أشجار الصنوبر الوردي.. ان هناك زيادة مذهلة في تحرر الكربون الى الجو نتيجة التقدم التقني. كما تؤكد ذلك أيضا نتائج قياسات تركيز الغاز في الجو قامت بها محطة أبحاث في منطقة مينالو في جزيرة هاواي. وهذا التسجيل تستطيع أن تراه اذا القيت نظرة على المنحنى البياني المنشور هنا، وهو يوضح معدلات الزيادة في غاز ثاني أكسيد الكربون باطراد والذي نقلناه بتصرف عن مجلة العِلم الامريكية،كما نلاحظ أن نسبة الغاز تزداد وتقل وفق دورات



منطقة الجرف الصخري قرب ولاية كلورادو ، اللون الاخضر يظهر منطقة الخضرة صيفاً .



رسم لمنطقة جرف كلورادو شتاء توضح تقلص منطقة الخضرة وازدياد كثافة اللون الأسود في يسار الصورة دليل على زيادة تركيز غاز ثاني اكسيد الكربون.

محددة. في الخريف مثلا تزيد النسبة وتستمر في الزيادة حتى الشتاء ثم تقل في فصل الصيف. ويرجع السبب الى أنه في فصلي الربيع والصيف تنفض الأشجار والمزروعات عن كاهلها الغطاء الثلجي وتنمو الاوراق وتبدأ المعامل الالهية الخضر المعروفة باسم الأوراق في امتصاص الغاز من الجو فيما نسميه عملية التمثيل الضوئي.

والشيء المدهش في ذلك أن نتائج محطة مينالو تكاد تطابق صور الأقمار الصناعية الملتقطة لمنطقة الجرف الصخري قرب ولاية كلورادو الامريكية والتي نراها منشورة هنا على هيئة صورتين العليا التقطت في شهر اغسطس وفيها تبدو المزروعات مظللة باللون الأصفر والمناطق القاحلة باللون الرمادي ولون الصخور في أقصى يسار الصورة غير داكن مما يشير علميا — في الصورة الملونة — الى انخفاض نسبة الغاز في الجو. بينما في الصورة السفلى لذات المنطقة الملتقطة خلال شهر نوفمبر من العام نفسه تقلصت مساحة المناطق الخضر وتحول لون الصخور الى الأسود الداكن مما يشير الى تباطؤ شديد في عملية التمثيل الضوئي.

إن زيادة ثاني أكسيد الكربون يسمح لحرارة الشمس بالنفاذ الى الأرض في النهار ولا يسمح ليلا بارتداد الحرارة الى الفضاء الخارجي ، وبذا يتحول الغلاف الجوي الى ما يشبه اناء زجاجياً فتزداد درجة الحرارة على الأرض بنسبة درجة الى ثلاث درجات مع حلول منتصف القرن الحادي والعشرين.

ويحذر الدكتور «جورج م. وودول» من أن ارتفاع حرارة الأرض سوف يؤدي الى صهر جبال الجليد الموجودة عند القطبين وتحولها الى كميات هائلة من الماء تتدفق الى البحار والمحيطات ومن ثم يؤدي الى ارتفاع في مستوى الماء عن معدله الحالي ارتفاعا قد يصل في أسوأ الحالات الى ١٠٠ متر. أي أن الماء سوف يغطي كل



بلاد العالم الساحلية ويطمس معالمها وتختفي الحياة فيها تحت ضربات الأمواج.

ولكنما تعود البشرية مرة أخرى الى عهد طوفان سيدنا نوح عليه السلام.. مع أن الفرق شاسع بين طوفان جاء به الله جل وعلا ليعذب الكافرين برسالة نبيه وبين طوفان تصنعه البشرية بأيديها لتدمر حالها به.

ولا زالت في المناخ وتقلباته أمور كثيرة نأخذ منها أمرا آخر.. فبعض العلماء يرجع هذه التقلبات الى التجارب النووية والمفاعلات الذرية بما تسببه من تأين غلاف الجو نتيجة انفلات كميات غير قليلة من غازات عديمة الكثافة لا تستطيع الجاذبية الأرضية أن تستبقيها داخل الغلاف الجوي فتنطلق في الأجواء العليا ثم الى الفضاء الخارجي ولا تقدر قطرات المطر على اعادتها للأرض فتبقى عالقة حيث هي الى أن تتحلل مكونة ذرات جديدة تؤدي الى تأين الهواء وتحلل الاوكسجين والاوزون



في تفاعلات متلاحقة.. تتأين ذرة فتتأين الأخرى تبعا لها وهكذا مما يؤدي الى إفساد كميات كبيرة من الهواء تفضي الى تغيير مناخي حاد.

وبعض العلماء يفسر ظاهرة تقلبات المناخ وفق مفهوم آخر.. فهم يقولون بأن الحق جل وعلا أحاط الكرة الأرضية بدرع واقٍ من غاز الأوزون وهي الطبقة المعروفة باسم الميزوسفير،ولولا هذه الطبقة لانهمرت على الأرض كميات هائلة من الأشعة فوق البنفسجية الحارقة.

ورغم ضآلة نسبة الأوزون فانه بالغ الأهمية والحيوية الا أنه شديد الحساسية لدرجة الحرارة، فاذا زادت الحرارة على معدلها تحلل الأوزون مرة أخرى الى أوكسجين وسمح بنفاذ الأشعة فوق البنفسجية الى الأرض ويكفينا تدليلا على خطورة هذه الأشعة أن نتذكر رواد الفضاء السوفييت الذين حلقوا على ارتفاعات قريبة من الطبقة العليا للهواء دون احكام حمايتهم من الأشعة فوق البنفسجية فتعرضوا في لمح البصر الى الحروق، ولو حدث — لا قدر الله — أن وصلت الأشعة الى الأرض مباشرة لحرقت الأخضر واليابس وحولت الأرض الى صحراء جرداء.

وعلى الرغم من معرفة العلماء بتلك الحقائق فإنهم يبالغون في ارسال سفن الفضاء والأقمار الصناعية وأقمار أخرى للاتصالات والمسح الجوي وغيرها، الى أجواء الفضاء مخترقين كل يوم ستارة الاوزون مدمرين تماسكها ومعرضين الأرض الى مزيد من المخاطر مما دعا الأمم المتحدة في عام ١٩٧٧م الى اقتراح خطة عالمية لإجراء البحوث الجادة حول الدمار اللاحق بطبقة الاوزون العليا حتى لا تحتل الحشرات سطح الأرض، علما بأن تلك الحشرات هي الكائن الحي الوحيد القادر على الصمود حيال هذه الاشعاعات القاتلة. ثم أن ما يقوم به الانسان من رمي الفضلات الكيميائية والنفايات الصناعية في البحار والمحيطات ليزيد الأمر سوءاً حيث أن الكميات المتزايدة تؤدي الى افساد المياه وحجب مسطحات متسعة باستمرار من هذه المياه التي تشترك مع الغابات في تزويد الأرض بالأوكسجين. وهناك رأي آخر يقول بأن الحياة على سطح الأرض نشأت في المقام الأول داخل أعماق البحار القديمة قبل أن يكون هناك أي أثر للاوكسجين،ويدللون على صحة هذا الرأي بأن دم الكائنات الحية بما فيها الانسان عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لماء البحار. ومعلوم أن مياه البحار هي المورد الرئيسي للماء العذب وان ٧٠٪ من الاوكسجين مصدره البحار والنباتات البحرية التي تستهلك في سبيل اعداده لأهل الأرض كميات هائلة من ثاني اكسيد الكربون. وحجب هذه المسطحات المائية أو اتلافها سوف يرفع من حرارة الأرض ويأتي بكل الآثار المدمرة للمناخ.

قد يكون ما عرضناه هنا يمثل صورة قاتمة الى حد ما، لكن علماء آخرين لهم رأي يخالف ما اسلفنا ذكره تماما مؤكدين بأن التغيرات المناخية العظمى التي طرأت على الأرض خلال المليون سنة الأخيرة لم تحدث فجأة ولم تحدث على مدار قرون،ولكنها حدثت على فترة زمنية تمتد آلاف السنين،وبالتالي فليس من المقبول حدوث تلك العواقب في حدود مائة أو مائتين أو حتى خمسمائة سنة.

إن مناخ الأرض موضوع معقد، لكنه لا يدعو الى التشاؤم،فقد أسهم العلم في الوقت الحاضر عبر الأقمار الصناعية وأجهزة الانذار القادرة على التحديد الدقيق للمتغيرات المناخية المرتقبة وما كان يعد منذ عشرين عاما نسجا من الخيال أو ضربا من الأحلام أضحى حقيقة، وتوجهت الأقمار الصناعية ترقب الشمس وتستطلع المنطقتين المتجمدتين الشمالية والجنوبية مما ساعد على فهم المناخ أو على الأقل الحد من أخطار التغيرات المناخية □



أحمد حسن الزيات

كتاب قيم.. صدر خلال عام ١٩٨٦، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.. بالاشتراك مع: دار الشؤون الثقافية في بغداد من «الألف كتاب الثاني» تأليف الدكتور نعمة رحيم العزاوي، استمتعت بقراءته في رحلاتي بالقطار بين المانيا وسويسرا وايطاليا، خلال الثلاثة الأسابيع الأول من شعبان ١٤٠٧هـ. ولم يعجبني قول المؤلف في مقدمته ص(٦): «ومن هنا فان هذا الكتاب جاء ليسد فراغا في المكتبة العربية، ويتدارك نقصا في الدراسات الأدبية الحديثة، وينصف أديبا كبيرا الخ».

وما كنت أحب للدكتور — نعمة — أن يجنح الى هذه العبارة، وإنما يتركها للقارئين والدارسين لكتابه، فالحكم على كتابه.. ليس له، وإنما هو للآخرين. والدراسات الأدبية الحديثة مجال عريض متنوع، فهل كتاب كهذا يوصف: بأنه يسد نقصا في الدراسات الأدبية الحديثة، وهو يتناول أديبا معاصرا.. كل انتاجه منشور.. عبر مجلته «الرسالة» وكتبه الأخرى.. وهي محدودة، لأن الرجل مقل، ذلك أن اهتمامه بمجلته شغله عن الدراسات والتأليف الأدبي.

ليس للأستاذ أحمد حسن الزيات.. سوى: تاريخ الأدب العربي، ودفاع عن البلاغة،وحي الرسالة — افتتاحيات الرسالة، وفي ضوء الرسالة، امتداد لوحي الرسالة، ومختارات من الأدب الفرنسي، قصائد واقاصيص حول الأدب، والام فرتر وروفائيل ترجمها عن الفرنسية.

وقد سبق الدكتور نعمة.. كاتبان ألّفا عن الزيات ومجلته الرسالة، فقد صدر عن دار الرفاعي بالرياض قبل أربع سنوات كتاب اسمه: «الزيات والرسالة» وصدر كتاب عن دار المعارف بمصر.. ضمن سلسلة «إقرأ» الشهرية بعد الكتاب الذي صدر عن دار الرفاعي بفترة قصيرة ولم يشر المؤلف اليهما في كتابه، كما لم يشر الى تاريخ وفادة الرجل الذي يكتب عنه ويدرسه، لم يشر الى تاريخ وفاة الزيات، مع أنه أشار في ص(١١) الى تاريخ ميلاده.

يحيل الدكتور نعمة في دراسته الى بعض المراجع، فنجده يقول: «وهفا الى الأدب مثله رفيقاه طه حسين ومحمود زناتي، وكان الثلاثة ينشرون بشائر أدبهم في صحف ذلك العهد اليومية والاسبوعية، كان للزيات شهرة في النثر.. حين اشتهر طه بالشعر ومحمود زناتي بالرواية-المرجع «قمم أدبية» ولم يشر المؤلف الى مؤلف — قمم أدبية — وكان ينبغي أن يكون من باب التوثيق المنهجي.. ليسهل على قارئه المتابعة فنحن نجد في ص(١٤) ثلاثة مراجع قمم، دراسات بلاغية ونقدية، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده لم يذكر اسماء مؤلفي هذه الكتب. وفي الصفحات التالية.. كثير من المراجع، لم يذكر أسماء مؤلفيها مثل: النقد العربي الحديث، العمدة، وقضايا النقد الأدبي، والنقد المنهجي عند العرب، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، وأدب الزيات في العراق، النقد والنقاد المعاصرون، وعنصر الصدق في الأدب، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي. غير أن المؤلف.. في هامش كتابه اشار الى اسماء هذه الكتب ومؤلفيها، وكنت أود أن يشير الى ذلك حين ذكر اسم الكتاب الذي اعتمد عليه في ذيل الصفحات. وبالقياس الى شاعرية طه حسين فانها لا تستحق الذكر، فهي محاولات تافهة، اعلن صاحبها انها سخف وهراء وعبث.

ثم يقول المؤلف: «وبعد حصول الزيات على الليسانس.. رغب في التدريس في دار العلوم فحال دون ذلك ضعف بصره.. الذي أورثه اياه رمد اصابه في طفولته، ثم يقول: «وفي سنة ١٩١٤م، انتقل الزيات الى تدريس اللغة العربية في المدرسة الاعدادية الخ». والزيات نال الليسانس في عام ١٩١٣م، فكيف ان ضعف بصره لم يتح له التدريس في دار العلوم، وسمح له بالتدريس في مدرسة اعدادية؟

ونحن نعلم أن طه حسين الكفيف البصر.. لم يحل ذلك بينه وبين التدريس في الجامعة! ثم ان الزيات بعد ذلك، أي في عام ١٩٢٢ — اختارته الجامعة الامريكية رئيسا للقسم العربي فيها، ودخل الحقوق الفرنسية — دراسة ليلية —،

كاتبًا وناقدًا

تأليف الدكتور: نعمة رحيم العزاوي — عرض وتقديم: الأستاذ عبدالفتاح أبومدين/جدة

درس عامين في مصر والثالث في فرنسا، وحصل على الليسانس من كلية الحقوق بجامعة باريس عام ١٩٢٥م. ثم ان الزيات عمل في دار المعلمين العالية ببغداد من عام ١٩٢٩ الى ١٩٣٢م، لذلك فاني لا اعتقد أن ضعف بصر الزيات الذي يشير اليه المؤلف.. اعتمادا على بعض المراجع،سبب رئيسي يعوق عمله، فهو بعد هذا رأس تحرير مجلته الرسالة.. عشرين سنة، بدءا من يناير ١٩٣٣م. كما يشير المؤلف الى أن الاستاذ الزيات تولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر عدة شهور والذي أعرفه أن الاستاذ الزيات شغل رئاسة تحرير مجلة الأزهر أكثر من شهور.. بل أكثر من سنة. ويقول المؤلف في ص (٢٦) في الهامش: تربى في مدرسة الرسالة —ومنها— تخرج (دريني خشبة وعبدالمنعم خلاف الخ) والصحيح أن يقول: وفيها تخرج —لا منها فذلك أصح لغويا. ويشير المؤلف في ص (٢٧) الى مجلة الرسالة، وما كانت تلاقيه في العهد الماضي من ضيق في مواردها وثقل كاهلها بالضرائب، ولم يشر الى مقالة الزيات التي يؤبن بها الرسالة في العهد الآخر، حين احتجبت، وذكر أن الرسالة كانت مستمرة في الماضي رغم اعباء الرقابة والضرائب، وانها تنتهي فيما اسماه بعهد النور والحرية، ترك المؤلف المقارنة.. أو الحديث عن العهدين، وهو جانب مهم من المقارنة، وجدير بالاشارة. ولكنه اكتفى بالقول: «وفي الخامس والعشرين من حزيران سنة ١٩٦٣م عادت الرسالة ثانية للظهور، ولكن وسط ظروف كثيرة.. لا تعين على تواصل او بقاء». فما هي تلك الظروف والعوائق، ما حقيقتها وما عللها؟ لم يبسط المؤلف الحديث عنها ولا حلل الحالة.. التي حالت بين الرسالة وعدم استمرارها، في بلد فيه كثافة ثقافية وثقل أدبي عريض. نلاحظ في ص (١٧) قول الدكتورة نعمات فؤاد: «وقد حدث في هذه الأثناء (أثناء دراسة الزيات — في الأزهر—) ان كان الشيخ المرصفي يدرس«الكامل»للمبرد.. وفيه خطبة للحجاج الخ» ثم تقول: قاصدا قبر الرسول بالبقيع.. وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ليس بالبقيع، وإنما هو في بيته الذي ضم الى مسجده فيما بعد. فهل الدكتورة نعمات والمؤلف.. لا يعرفان أين مكان قبر رسولنا.. أهو بالبقيع أم في بيته —في مسجده اليوم.. وقبل اليوم.؟

واذا عدنا الى الوراء في كتاب الدكتور نعمة، اي الى المقدمة، نقرأ قوله «وعلى الرغم من كثرة آراء الزيات النقدية، فان الدارسين للنقد الحديث لم يولوها ما تستحقه من عناية ولم يقفوا عندها وقوفهم عند آراء العقاد وطه حسين والرافعي، فكأن النقاد اخملوا الزيات، والقوا به في منطقة الظل».

ولقد أشرت الى صدور كتابين عن الزيات.. وربما صدر غير ذلك بعدهما، ويبقى على المؤلف المتابعة كما أشرت الى أنه لم يشر الى الكتابين آنفي الذكر، ولعله لم يطلع عليهما. ثم أن الزيات.. لم يكن في صفوف طه والعقاد والرافعي. الزيات كما يقول المؤلف في ص (٣١) من كتابه: «لقد عاش الزيات في شبه عزلة فلم ينتم الى حزب ولم يدخل في خصومة.. ولم تهف نفسه الى منصب أو جاه أو مال، وكان لذلك قلما عرفه زعيم أو رآه حاكم» ويقول كذلك في ص (٣٢): «والزيات وان آثر العزلة في حياته ومال الى الدعة والمسالمة.. فانه لم يتخل عن اداء الواجب». كما يقول: «والزيات بعد ذلك رجل هادىء معتدل، يكره الجدل ويمقت المراء». والزيات نفسه يقول عن نفسه: «وانا اوثر ان تجري حياتي جريان الجدول الهادئ المنساب» الى أن يقول: «لذلك كانت الخصومات الأدبية تنشب بين الكتاب.. الحين بعد الحين في الرسالة وغير الرسالة، فلا اشترك فيها بلسان ولا قلم» —وحي الرسالة ي ٤/١٢٠—ي.

الاستاذ الزيات أديب.. ما في ذلك شك، وهو صاحب أسلوب مميز وبلاغة وجمال اداء، وهو قد شغلته الصحافة الأدبية، فقضى بعد أن ترك التدريس زهرة حياته كاتب مقالة أدبية، هي افتتاحيات الرسالة لعشرين سنة. اذن هو انشغل عن الدراسات الأدبية، حتى كتابه «تاريخ الأدب العربي، لم يكن للدارسين، وإنما هو لطلاب المدارس الثانوية وأمثالهم.. كما أعلن

الاستاذ الزيات نفسه، فهو قد ألفه مبكرا أي في سنة ١٩١٦م قبل أن ينضج البحث في تاريخ الأدب. ويقول الدكتور نعمة في ص (٣٧): «وقد اخذ الزيات في كتابه بالمفهوم الضيق لتاريخ الأدب» الى أن يقول: «فقد ظل الكتاب مدرسيا، فيه قصور الايجاز وعدم التعمق في الأفكار، وخاصة ما يتعلق بالناحية الفنية، لقد ألف الكتاب للناشئة والمبتدئين». كما يقول مؤلف الكتاب نفسه.. الأستاذ الزيات «ونحن انما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله، وألمحنا فيه باصوله لا بفصوله» الى أن يقول: «فانما هو عجالة لهفان، وبلالة صاد، وغلالة شوق».

اذن الاستاذ الزيات.. رغم بلاغته وأسلوبه المميز الرائع، فهو:

١ — قد صرفته الصحافة الأدبية عن الدراسات الأدبية.

٢ — كتابه تاريخ الأدب العربي.. هو كما قال عنه مؤلفه والدكتور نعمة — للناشئين — اذ ليس فيه عمق واستقصاء وتوسع.

٣ — ان الاستاذ الزيات.. يؤثر العافية، أي أنه يؤثر الدعة، والبعد عن المعارك الأدبية والخصومات.. كما أشار الدكتور نعمة والزيات نفسه. وأنا أذكر انني زرت الاستاذ الزيات.. مع صديقي الراحل الاستاذ عبدالعزيز الربيع، وكان الزيات يرأس تحرير مجلة الأزهر، سألته عن كاتب مكثر.. في غير جدوى ما كتب، وإنما هو غثاء كغثاء السيل، فقال الزيات: لو أخصر كتبه التي تجاوزت المائة.. هذا الكلام قبل ربع قرن، اي الى خمسة أو عشرة لكان أجدى له وللأدب، وقال لي بعد ذلك: «اذا كتبت عنه ارجو الا تسند الى ما قلت»، مع أن الرجل الذي سألته عنه.. لم يكن ذا خطر، وقد بلغت مؤلفاته — الهراء — أكثر من مائتين.

الزيات فرض على نفسه العزلة، وتجنب المعارك الأدبية، هو فرض على نفسه أن يكون في — الظل — فبقي فيه، أي انه رغم أدبه.. فليس بذي خطر، وليس له تطلعات بعيدة ولا طموح، رغم أني.. لا اغض من قيمة مجلة الرسالة، وإنما هي وظيفة ورسالة.. يؤديها صاحبها.. في رفق واناة، بعيدا عن رهج الصراع الفكري.. في ساحات المعارك الأدبية الصاهلة. وانت ترى أثر ذلك.. في حوار دار بين الزيات وسعيد العريان، بعد أن قامت المعركة بين العقاد والرافعي، فان الزيات.. لم يستطع ان يجمع في مجلته.. بين العقاد والرافعي: من يقدم على من؟ في تصوره.. ان تقديم احدهما على الآخر يثير غضب الآخر، والزيات لا يريد أن يغضب احدا منهما، لأنه لا يستطيع أن يجابه ويصادم. يقول الاستاذ سعيد العريان: «قال لي الاستاذ الزيات صاحب الرسالة مرة.. قبل موت الرافعي: وددت لو يكتب العقاد في الرسالة، ولكنما يمنعني من دعوته الى ذلك.. انني لا استطيع أن انشر له وللرافعي في عدد واحد. قلت فماذا يمنع؟ قال: أنت تعرف اخلاق الرافعي، وأنا أعرف أخلاق العقاد، وان لكل منهما اعتدادا بنفسه بازاء صاحبه، فأي المقالين.. أقدم، وأيهما أؤخر في ترتيب النشر؟ ان تقديم مقال على مقال.. ليس شيئا ذا بال، ولكنه مع الرافعي والعقاد له شأن أي شأن».

لا نغمط الزيات حقه ومكانته الأدبية، ولكن هذه المكانة.. تحددها مساحة محدودة.. واتجاه محدد، اختطه الزيات لنفسه ورضيه سلوكا ومنهجا، ولنا شاهد في الحديث النبوي: «**كل ميسر لما خلق له**».

فالزيات اختار — الظل — وظل فيه.. يعمل في اداء دوره وفق اختياره، بعيدا عن الأضواء، فبعدت عنه الأضواء الى حد ما، وربما تصدر دراسات عن أدب مقالة الزيات.. التي شغل بها منذ أن أنشأ الرسالة حتى وفاته.. أو قبلها بسنوات، اي الى أن ترك مجلة الأزهر وبقيت كتبه ظلها محدود، وللرجل أسلوب طل.. سلس جميل وسهل، كلماته منغمة رشيقة، لها جرس موسيقي رائع، وهو قد اتخذ السجع البديع أسلوبا لكتاباته في مقالاته عبر أربعين سنة أو تزيد. لأنه يملك ثروة لغوية عريضة.. من تحصيله في الأزهر، كما هي الحال عند زميله وصديقه الدكتور طه حسين.

٤ — هناك جانب آخر مظلم.. نتيجة خطأ وقع فيه الزيات أيام كان رئيسا لتحرير مجلة الأزهر، بل هي زلة قاصمة، حين قارن بين العقيدة والاشتراكية ارضاء لما حوله، فلا حول ولا قوة الا بالله، وامره في ذلك الى الله.

وبعد هذه الوقفة.. مع كتاب الدكتور — نعمة رحيم الغزاوي — برغم بعض الهنات التي أشرت اليها آنفا، فان الانصاف يدعوني الى الاشادة به، والجهد الذي بذله فيه، بدءا من الحديث عن ابوي الزيات الى ولادته ودراسته.. ورحلة حياته الطويلة، مدرسا ومؤلفا وكاتب مقالة.. في رئاسة تحرير مجلته الرسالة — ثم في مجلة الأزهر، وفي مجمع اللغة العربية، حياة امتدت أكثر من ثمانين سنة.. كلها عمل وعناء وضنى مع الكلمة الرشيقة العذبة المنمقة، بقدر ما أتيح للرجل في مناخه العملي.. الذي امكنه واداه وفق قدرته وامكاناته، واني أؤكد أن مجلته الرسالة.. كانت مدرسة أدبية شامخة، رصينة قوية، وفق صاحبها.. الى الحفاظ على مستواها.. خلال عمرها الذي امتد الى عشرين سنة.

إذن كتاب الدكتور نعمة.. درس الزيات الأديب خلال حياته الطويلة واعماله الأدبية والتدريس ومناهجه عبر حياته كلها، وأثر أدبه ومجلته وآرائه الأدبية، وهي متابعة جيدة ودقيقة وشاملة، فيها جهد المؤلف الواعي المتابع.. لآثار من يدرس، وفق منهج تسلسلي ومركز يستحق المؤلف على هذا الجهد الكبير.. التقدير. والكتاب خليق بالمطالعة والاقتناء □



يا رَبِّ هَبْ لي من زماني فترةً
أحيا بها في ريفنا الوضاء

ثقلت على قلبي المدينة كلها
وبما حوت من قسوة وجفاء

فلقد سئمت ضجيجها وزحامها
وشتائم الأحياء للأحياء

وزهدت كل الزهد في من أتقنوا
حيل الخداع وصنعة الاطراء

وغدوت أهفو للطبيعة مثلما
تهفو الروابي الخضر للأنداء

وغدوت أهفو للجمال وقد بدا
في ريف مصر كجنَّة عذراء

فمتى.. متى أنساب عبر مروجه
وأشمّ عطر الورد والحنَّاء..!

* * *

لو جاد دهري لاستكنت سعيدة
في قرية مجهولة الأسماء

سأعيش بنت الشمس في أحضانها
أطوي البقية لي مع البسطاء

ولسوف أحيا مثلهم قرويَّة
الزرع همِّي والحصاد رجائي

وعلى ضفاف النهر أملأ جرتي
وأعود أرفل في سَنَى الخُيَلاء

ولسوف أطلق في النهار مشاعري
تغزو جمال الريف في إغراء

حتى اذا وافى المساء ضممتها
في داخلي كالمهد للأبناء

وأنام والأمن الكبير يضمني
ونقاء احلامي وصفو سمائي

* * *

كم اشتهي عند الظهيرة جلسة
في ظلِ حقل واسع الأرجاء

قدماي غافيتان في حرِّية
ممتدتان هناك في استرخاء

والظهر مستند الى صفصافة
حملت على اكتفاها أعبائي

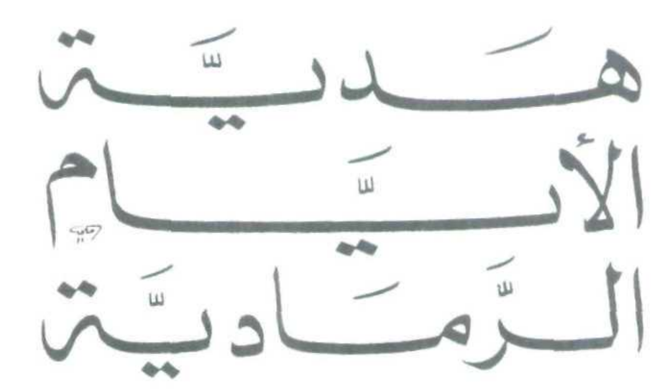
وقفتْ كشيمة أهلها في نخوة
تَهَبُ الشذى والظل للغرباء

ومراوح الأغصان تنعش مهجتي
وتعيث في خجل بذيل ردائي

والطير لحني والجداول معزفي
والأرض فرشي والسماء غطائي

* * *

قصة قصيرة:



تأليف: أو. هنري

ترجمة: حسني محمّد بدوي / القاهرة

لم تستطع «ديللا» أن تدخر سوى دولار واحد وسبعة وثمانين سنتا، بالرغم من أنها اتبعت اسلوبا صارما في التقتير والاقتصاد، لم تكن تشتري — بوصفها ربة بيت — من محال البقالة والجزارة والخضر الا النزر اليسير الرخيص. بلغت في تقتيرها أقصى الدرجات ولم يكن في مقدورها أن تفعل أكثر من هذا. وغدا سيكون العيد! فارتمت فوق سرير صغير رث، واجهشت بالبكاء. مضت دقائق وهي على هذه الحال من الشعور بالبؤس، ثم نهضت وهبطت من الطابق العلوي للبيت، درجة اثر درجة، لتلقي نظرة فاحصة على أرجاء البيت. ولم تكف عن التفكير في القيمة الايجارية لشقة مفروشة ملحقة بأسفل هذا البيت، هذه القيمة الايجارية التي تناقصت حتى بلغت ثمانية دولارات فقط (اسبوعيا). وكان هذا المسكن يفوق كل وصف! كان يوجد في ممر الدهليز صندوق بريد لم يوضع فيه خطاب من قبل! كما كان يوجد بجانب الباب الخارجي زر كهربائي لم تمسه اصبع انسان زائر! وقد علقت على ذلك الباب بطاقة تحمل اسم «السيد جيمس ديلينجهام يونج» الذي كان يطير فرحا في الأيام الخوالي السعيدة، فهو بوصفه مالكا لهذا البيت، كان يتقاضى ثلاثين دولارا اسبوعيا هي القيمة الايجارية للشقة المفروشة الملحقة بأسفل بيته، هذه القيمة تناقصت الآن ولم تتعد الثمانية دولارات! وتفكر «ديللا» في هذا التناقص ببؤس وشقاء. نعم تقلص ايراد زوجها «السيد جيمس ديلينجهام يونج». كما أن حروف اسمه على هذه البطاقة المعلقة بالباب! صارت باهتة شبه مطموسة!

وعندما يعود زوجها الى البيت ويصعد الى شقتهما، تهرع نحوه وتناديه وتضمه الى صدرها بحنان بالغ. ولما كفت «ديللا»، في هذا اليوم، عن الاجهاش بالبكاء، مسحت دموعها عن وجنتيها بقطعة من القماش الخشن، ثم وقفت بجانب



النافذة وتطلعت في حزن الى قطة رمادية تسير بهدوء على سور رمادي يطل على فناء رمادي. نعم، غدا سيكون العيد وهي لا تملك سوى دولار واحد وسبعة وثمانين سنتا فقط لا غير، وهو مبلغ متواضع لا يمكّنها من شراء هدية لزوجها، لقد ادخرت كل «بنس» من هذا المبلغ، بكثير من الجهد والتقتير والحرمان طوال الشهور الماضية.

وظلت «ديلـلا» تفكر تفكيرا مضنيا في شراء شيء لطيف لـ«جيم». نعم، يجب عليها أن تشتري له هدية نادرة، شيئا رائعا يجدر بـ«جيم» ان يقتنيه، وان يكون له شرف الاحتفاظ به!

وتراءى لها على صفحة المرآة المستطيلة، بجانب النافذة، طيف زوجها بطوله الفارع. ونظرت الى صورتها المنعكسة في المرآة، فالتمعت عيناها، ثم شحب وجهها لحظات وهي تنشر شعرها الطويل وتنثره، فانساب بكامل طوله على كتفيها وظهرها. كم هو جميل شعرها المتوهج. وخطر ببالها شيئان من ممتلكاتهما، شيئان يفخران بهما كل الفخر. الأول: ساعة «السيد جيم» التي كانت في سالف الزمان ساعة أبيه، كما كانت من قبل ساعة جده. أما الشيء الآخر، فكان: شعر «ديلـلا» الذي كان يشعرها من فرط جماله بأنها أغنى من ملكة سبأ! كما كانت ساعة «جيم» تشعره بأنه يفوق الملك سليمان ثراء! كان شعرها كستنائيا جميلا متماوجا وضاء وهاجا كشلال دافق. كان يصل من فرط طوله الى ركبتيها وكأنه ثوب من الحرير الهفاف. الآن، وقفت «ديلـلا» امام مرآتها ورفعت شعرها عاليا في سرعة وعصبية، ثم وقفت ساكنة لحظات وما لبثت أن طفرت من عينيها دمعتان ساختنان تناثرتا فوق السجادة الحمراء المهترئة!

ارتدت «ديلـلا» ثوبها البني وقبعتها البنية أيضا. هبطت الدرج وغادرت بيتها. وسرعان ما وجدت نفسها تسير في الشارع. توقفت هنيهة امام لافتة معلقة فوق حانوت، كتب عليها «مدام صوفرونيه» — لبيع وشراء جميع أنواع الشعر». خفق قلبها بين جوانحها فاستجمعت شجاعتها لاهثة الانفاس. وكانت «مدام صوفرونيه» — صاحبة هذا الحانوت — بدينة ضخمة الجسم، بيضاء البشرة، قاسية النظرات. سألتها «ديلـلا»:

— «اتشترين شعري؟!». فقالت «مدام صوفرونيه»:
— «نعم، انني اشتري الشعر، اخلعي عن رأسك هذه القبعة ولنلق نظرة لتفحصه». وانساب الشعر الكستنائي الجميل متماوجا وهاجا، ثم قالت «مدام صوفرونيه» وهي ترفع كتلة الشعر بيد خبيرة: — «عشرون دولارا»!

فقالت «ديلـلا» على الفور:
«أعطني هذا المبلغ فورا»!

وبعد مضي ساعتين، عادت «ديلـلا» وكأنها طائر يحلق في خفة بجناحين متوردين، اذ ظلت تبحث في المتاجر عن هدية لزوجها الحبيب «جيم». وها هي أخيرا قد وجدتها. وجدت الهدية التي بدت وكأنها صنعت خصيصا له هو وحده. هدية لا يوجد مثيل لها في أي متجر. كانت الهدية سلسلة لساعة الجيب الصغيرة، سلسلة مصنوعة من البلاتين الثمين، جميلة بسيطة في رسمها وتنسيق نقوشها. انها لا شك تحفة نفيسة، جديرة حقا بساعة «جيم». وهي عندما لمحتها في الوهلة الأولى، ادركت انها تليق حقا بساعة «جيم». تأملتها وتملت منها حتى اطمأن قلبها فدفعت ثمنها واحدا وعشرين دولارا! ثم هرعت عائدة الى البيت وليس معها سوى سبعة وثمانين سنتا. ولا شك أن «جيم» عندما سيضع ساعته في هذه السلسلة الجميلة، سيبدي اهتمامه بالوقت، بصراحة وعلانية، وهو في رفقة اصدقائه! بعد أن كان يختلس النظر الى الساعة متحرجا خشية أن يرى أحدهم شريطها الجلدي القديم المهترىء. ان هذه السلسلة العظيمة ستكون بديلا عن ذلك الشريط المخجل! فيحق لزوجها أن يفخر بها وسط رفاقه.

عندما عادت «ديلـلا» الى بيتها، كان افتتانها بالسلسلة الجديدة قد بلغ مداه. وخلعت عن رأسها مشابك الشعر الحديدية، ثم اشعلت المصباح الغازي، وتوجهت الى المرآة لتعيد تصفيف ما بقي في رأسها من زغب شعرها الذي أصابه مقص «مدام صوفرونيه» بالجز والتخريب!

وبعد أربعين دقيقة، كان رأسها قد تغطى بتلافيق ذلك الزغب المجعد، مما جعل منظرها لطيفا فبدت كتلميذ صغير شارد. ونظرت «ديلـلا» طويلا الى صورتها في المرآة، نظرات دقيقة فاحصة، ثم قالت لنفسها: «اذا لم يقتلني «جيم» قبل أن ينظر الي النظرة الثانية، فانه لا شك سوف يغضب، فماذا أفعل؟.. آه.. ماذا كان يمكنني أن أفعل بدولار واحد وسبعة وثمانين سنتا؟!».

وفي الساعة السابعة، كانت القهوة قد أعدت، كما كانت المقلاة قد وضعت فوق الموقد المشتعل، وراحت «ديلـلا» تتأهب لطهو شرائح اللحم. ولما ازف موعد حضور «جيم» الى البيت، طوت «ديلـلا» السلسلة في يدها وجلست الى مائدة في ركن بجانب الباب الذي تعود أن يدخل منه. وبعد هنيهة، سمعت وقع خطواته على درج الطابق الأول، فشحب وجهها لحظة، وكانت قد تعودت أن تتمتم بالدعاء الى الله. وها هي الآن تقول هامسة: «ارجو يا ربّ أن تبقيه على اعجابه بي. ارجو أن أظل جميلة في عينيه!». وفتح الباب، ودخل «جيم». بدا نحيلا جادا. لم يتجاوز بعد الثانية والعشرين

وقد أثقلت كاهله أعباء وهموم الأسرة ! كان المسكين في حاجة الى معطف وقفاز. وقف «جيم» بالداخل بلا حراك مثل كلب من كلاب الصيد بازاء رائحة طير من طيور السمان ! كانت عيناه تحملقان في «ديلـلا» وقد استكن فيهما تعبير غامض لم تتبين كنهه. لكنه تعبير بعث في نفسها الرعب، بالرغم من أنه كان تعبيرا خاليا من الغضب أو الدهشة أو الاستنكار أو الفزع، كان خاليا من تلك العواطف التي لم تكن «ديلـلا» متأهبة لتواجهها. ظل يحملق فيها بتلك النظرة الغريبة في ثبات. وازاحت هي المائدة قليلا ثم نهضت متقدمة نحوه وصاحت: «جيم ! لا تنظر الي هذه النظرة. لقد قصصت شعري وبعته لأنني لا أطيق أن يمر بنا العيد دون أن أقدم لك هدية. واما شعري فسوف ينمو مرة أخرى. ولن يهمك هذا. اليس كذلك؟! انني اضطررت لأفعل هذا. ان شعري ينمو بسرعة كبيرة . قل لي يا جيم: عيد سعيد، ودعنا نمرح ونفرح. أنت لا تعرف كم هي جميلة لطيفة هذه الهدية التي حصلت عليها من أجلك!». وسألها «جيم» وقد بدت عليه امارات التعب، وكأنه لم يستوعب بعد تلك الحقيقة الصريحة، سألها: —«هل قصصت شعرك حقا؟!». فقالت «ديلـلا»:

«نعم، قصصته وبعته، الا تحبني الآن كما كنت تحبني من قبل؟! ألست أنا «ديلـلا» بدون شعري؟!».

وراح «جيم» يجيل نظره في ارجاء الحجرة بشغف، ثم قال ببلاهة:

— «اتقولين ان شعرك قد قص؟!». فقالت «ديلـلا»:

— «أنت لست في حاجة للنظر الى شعري، فقد بعته وانقضى الأمر. اننا الآن في عشية العيد، فكن كريما معي، انني قصصته من أجلك. واذا كان يمكن لأحد أن يحصي عدد شعر رأسي الطويل المقصوص...».

وهنا تغير صوتها فجأة فصار ذا نبرة رقيقة عذبة وهي تكمل جملتها:

— «.. فان أحدا لن يستطيع ابدا أن يحصي مدى حبي لك، والآن: أتسمح لي يا جيم أن اواصل طهو شرائح اللحم؟».

وصحا «جيم» من غيبوبته سريعا، واحتضن زوجته.. ثم دس يده داخل جيب معطفه وسحب منه لفافة ووضعها فوق المائدة، ثم قال لها:

— «أرجو أن أكون عند حسن ظنك دائما، فانني لا اعتقد ابدا أن شيئا مثل قص الشعر أو حلاقته يقلل من حبي لك.. لك انت زوجتي الحبيبة الفاتنة ! ولكنك اذا ما فضضت هذه اللفافة، فسوف تدركين السبب الذي جعلني أقف آسفا مأخوذا!». وامتدت أناملها الرقيقة الى اللفافة وقطعت خيوطها وفضت غلافها ثم انطلقت من فمها صيحة فرح ودهشة.. لكن.. واأسفاه ! سرعان ما حدث تغير سريع في نبرات صوتها التي استحالت ولولة وبكاء نسائيا هيستيريا ! فقد رأت داخل اللفافة مجموعة من الأمشاط !.. كانت هديته لها مجموعة من الامشاط مصفوفة من كل جانب داخل علبة صغيرة. نعم، كم تاقت نفسها الى مثل هذه الامشاط، تاقت اليها من أعماق قلبها الى أقصى حد، منذ مدة طويلة عندما لمحتها يوما وهي تعبر الطريق داخل واجهة محل من محال مدينة «برودواي». أمشاط جميلة مصنوعة من الأصداف النقية والمحارات الرائقة.. امشاط ذات أطراف مرصعة بالأحجار الكريمة البراقة. امشاط جديرة حقا بشعرها الجميل الذي كان.. والذي اختفى الآن ! وعرفت «ديلـلا» انها أمشاط غالية الثمن، وعرفت أن قلبها يوما قد أحبها وصبا اليها، ولكنها الآن لا تشعر بأي رجاء أو رغبة في امتلاكها. فها هي الامشاط الجميلة قد اصبحت في متناول يديها. ولكن ضفائر شعرها وغدائره التي كانت تزينها وتزوقها بالحلى، والتي كانت موضع الحسد، قد اختفت الآن ! ومع ذلك، ضمت الى صدرها مجموعة الأمشاط هذه، واستطاعت أخيرا أن تنظر الى «جيم» بعينين كليلتين وقالت له مبتسمة:

— «ان شعري سينمو بسرعة يا جيم !».

ثم وثبت «ديلـلا» مثل قطة صغيرة لفحها لهب من نار وهي تصيح:

— « اوه ! اوه !».

ولم يكن «جيم» قد رأى بعد هديته الجميلة، فبسطت «ديلـلا» راحتها وقدمت له الهدية. وبدا معدن السلسلة النفيس الهادىء اللون وكأنه يلتمع في ضوء انعكاس روحها الصافية المشرقة الدافئة. وقالت له:

— «أليست لطيفة يا جيم؟ انني بحثت عنها في جميع ارجاء المدينة. وتستطيع أن تنظر الآن الى ساعتك مائة مرة في اليوم الواحد بلا حرج. ناولني ساعتك، فانني أريد أن أرى منظرها وهي محاطة بهذه السلسلة!».

وبدلا من ان يطيعها، جلس على الأريكة وابتسم قائلا:

— «دعينا نحفظ هدايا العيد هنا بعض الوقت، انها هدايا لطيفة جدا، ولكن لا يمكننا استعمالها في الوقت الحاضر، لقد بعت يا «ديلـلا» ساعتي لأشتري بثمنها مجموعة الأمشاط هذه. أما الآن فيمكنك ان تستمري في طهو شرائح اللحم!» □

العزوف عن القراءة في العالم الثالث

بقلم: ياسر الفهد/سوريا

على الرغم من ان القراءة هي من المشكلات المطروقة التي كتب فيها الكثير، فان هناك دائما مجالا لمد جسور جديدة بين الانسان العربي والقراءة. فلكل كاتب وجهة نظره الخاصة في هذا الموضوع، وبامكانه ان يقاربه من زاوية جديدة تختلف عن الزاوية التي يقاربه منها غيره من الكتاب.

فالآراء والمقترحات تختلف من كاتب الى آخر، وان كانت هناك كثير من القواسم التي يتفق عليها الجميع.

ومن جهة اخرى، فان قضية القراءة على جانب كبير من الاهمية، حتى ان مجرد ابقائها على بساط البحث الحار والمناقشة المتبصرة هو، بحد ذاته، امر مفيد وضروري جدا. لقد كانت اول آية نزلت على الرسول الكريم **(إقرأ باسم ربك الذي خلق)**. وهذه دعوة كريمة الى التعلم والقراءة. ومع ذلك، فان العرب متهمون اليوم بأنهم شعب غير قارىء. وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا ان مشكلة العزوف عن القراءة عند المواطن العربي، ربما تفوق في خطرها مشكلة تقييد حرية الكلمة، وللأسف الشديد، فانه لا يوجد حل سهل وسحري لمشكلة الانصراف عن القراءة. والمسألة ليست مسألة اجراء مزيد من الابحاث واستخلاص مزيد من النتائج والتوصيات، بل هي اعقد من ذلك بكثير، لأنها ترتبط بالأحوال العامة السائدة في الاقطار العربية. ان القراءة ليست مشكلة منفصلة وقائمة بذاتها، بل متصلة اتصالا وثيقا واساسيا بالاوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية والنفسية والسياسية والأمنية العامة، وان كان لها بعض الجوانب الخاصة بها ومن المؤكد ان تحسن الأحوال العامة، من شأنه ان يقود عادة الى تنشيط الاقبال على القراءة. وعلينا ان نلاحظ ان هناك انواعا من القراءة لا تحتاج الى تشجيع كبير. ومن ذلك القراءة التي يلجأ اليها الفرد بحكم الحاجة او المصلحة او الاضطرار. فالطبيب، مثلا، يقرأ أحدث الكتب الطبية حتى يواكب التطورات الجديدة في الطب، ورئيس التحرير ومعاونوه يقرؤون اصول المقالات، كي يقوموها ويبتوا بصلاحيتها للنشر او بعدم صلاحيتها، والمواطن العادي يقرأ الصحف اليومية حتى يلم بأخبار الساعة، ويبقى على صلة بالاحداث الراهنة، والقاضي يقرأ مستندات الدعاوي كي يصدر الاحكام بشأنها... الخ. ونذكر ايضا قراءة المتعة.. وتهدف الى مجرد الترويح عن النفس وتزجية اوقات الفراغ، فالقارىء هنا يبحث عن التسلية بقراءة القصص والأشعار والنبذ والطرائف وغير ذلك. وبالنسبة لهذين النوعين من القراءة، القراءة للاضطرار والقراءة للاستمتاع، يبدو انه لا توجد أزمة، لأن هناك دافعا داخليا او حافزا ذاتيا كافيا لحث القارىء على القراءة، دون حاجة كبيرة الى الاقناع الخارجي. وتظهر المعضلة الحقيقية، عندما يتعلق الأمر بالقراءة الهادفة الى نيل الثقافة، اي القراءة من أجل القراءة، وفي سبيل العلم والمعرفة وحدهما. ولسوء الحظ فان الكثرة الكثيرة من القراء، يقرؤون، على ما يبدو، بسبب الحاجة، والقلة القليلة فقط منهم يقرؤون لهدف ثقافي بحت. وما نحتاجه نحن العرب، بالفعل، تشجيع هذا الضرب الأخير من القراءة. ان الفرق بين الانسان المتحمس للقراءة والانسان الزاهد بها، هو في نظرنا، كالفرق بين الجسم السليم والجسم العليل، او بين النهر المتدفق والنهر الجاف، او بين الصحراء القاحلة والحديقة الغناء، او فلنقل، مرة واحدة، انه كالفرق بين الحضارة والتخلف.

وحتى في حالة وجود ميل للقراءة، فان لطبيعة المادة المقروءة أهمية، أيضا. فالمهم قراءة المادة العلمية الثقافية العميقة والمفيدة، لا المادة الغثة الهزيلة والسطحية. وتختلف الاهتمامات القرائية عند المواطنين العرب، من حيث النوع ومدى العمق وغير ذلك، باختلاف اعمارهم ومستوياتهم الثقافية، وباختلاف الظروف المحيطة بهم. فهناك الفتيان والمراهقون والقارئون غير المثقفين، والذين لا تحلو لهم الا قراءة المادة الخفيفة او المثيرة او المسلية. وهناك المثقفون المتوسطون الذين يقبلون على الكتب والمقالات العادية. اما المفكرون والاكاديميون فيهوون الانكباب على الكتب المنهجية العميقة والدراسات والبحوث المحكمة. ونذكر ايضا المختصين الذين ينقطعون الى قراءة المواد الاختصاصية ذات الصلة بتخصصاتهم.

ومن جهة ثانية، نجد ان الميل الى قراءة المادة المطولة، العميقة والجدية، يشتد وينتعش في الظروف اليسيرة، وفي حالات الشعور بالأمن والطمأنينة والاستقرار والسعادة. اما في اوقات الشدة والتوتر والضيق فان مادة القراءة المفضلة تصبح المادة القصيرة والخفيفة، نسبيا.

ونأتي الآن الى بيت القصيد ولب الموضوع، اي الى الطرق التي يمكن اتباعها لتشجيع القراءة وخدمة قضيتها. والنقطة الجوهرية، هنا، ان الدولة، وحدها، هي التي تستطيع أن تسهم بشكل رئيسي في دعم قضية القراءة. اما الأفراد، فان ادوارهم محدودة، نسبيا. وعلى كل حال، فان بوسع الكتاب والمسؤولين عن النشر ان يفعلوا الكثير لجعل القراءة محببة الى الناس.

وتلوح في ذهننا الآن بعض الأفكار التي نأمل ان تشكل لبنة جديدة في صرح الجهود التي يبذلها كثير من الكتاب في سبيل اثارة الميل الى القراءة عند المواطن العربي:

أولا. تحسين الظروف المعاشية والاجتماعية والنفسية للمواطن العربي. وهذا، للأسف، أمر يصعب التحكم به لأن تحقيقه يرتبط بسلامة الأوضاع العامة في البلاد. ان رب المنزل الذي يلهث وراء توفير لقمة العيش لأفراد أسرته، أو الانسان القلق الذي يفتقر الى الطمأنينة والثقة بالمستقبل، لا يسعه ان يضع القراءة، الا في مرتبة متأخرة من سلم اهتماماته، مهما كان مثقفا وتواقا الى الارتشاف من ينابيع العلم والمعرفة. واعادة مثل هذا الانسان الى حظيرة القراءة لا تتحقق بمجرد اقناعه بأهمية ذلك، وإنما بتحسين ظروف معيشته، وهذا أمر يخرج عن نطاق الثقافة الى نطاق اوضاع الوطن بأكملها. وهنا وجه الصعوبة.

ثانيا: توعية الناس، ولا سيما الأطفال، بواسطة أجهزة الاعلام (الصحافة والتلفاز والاذاعة) والتربية (المعلمين والاداريين) والأسرة (الآباء والأمهات)، بأهمية القراءة، حتى يعتادوا على النظر اليها بوصفها من ضرورات الحياة لا من كمالياتها.

ثالثا: تحسين مادة القراءة بطرق شتى، ومنها توفير تنوع أكبر في المطبوعات الموجودة في الأسواق، وفي موضوعاتها، حتى يستطيع كل قارىء ان يجد المادة التي تروق له، وتنسجم مع ميوله، فهناك كثير من المختصين والمثقفين العرب الذين يرغبون في قراءة كتب أو مجلات معينة تلائم اهتماماتهم وتخصصاتهم، ولكنهم لا يتمكنون من العثور عليها في اسواقهم، في حين انها قد تتوافر في اقطار عربية أخرى. وهذه المشكلة لا يمكن حلها الا عندما تخف القيود التي تعرقل حركة انتقال المطبوعات بين الأقطار العربية. ومن الطرق الأخرى لتحسين مادة القراءة وترغيب الناس اليها، ربط المادة الكتابية المنشورة بعناصر المتعة والتشويق والسهولة.. وهذه مسؤولية الكتاب والمسؤولين عن النشر.. فالناس كثيرا ما ينصرفون عن القراءة، عندما يجدون ان المادة المنشورة تتسم بالجفاف او التعقيد او الترديد الدعائي المضجر. ولا شك ان تعاون المعنيين بقضايا الثقافة والنشر على تقديم المنشورات المختلفة في طبق شهي جذاب، سهل التناول، ومستساغ الطعم، سيساعد دون ريب على إقبال مزيد من الناس على القراءة. وحتى البحوث والدراسات الاكاديمية المحكمة، ينبغي السعي الى تقديمها مسبوقة بمقدمات ومداخل توضيحية مشوقة تغري القارىء ،وتثير شهيته الى القراءة، بدلا من الاصرار على تقديمها مشفوعة بأكداس المصطلحات والتعبيرات الفنية الغامضة والأفكار الجافة.

رابعا: وضع المطبوعات المختلفة في متناول أكبر عدد من الناس. وهذا يمكن أن يتم بطريقتين:

أ ـــ تمكين المكتبات العربية من التوسع في اعارة الكتب والمجلات، بأنواعها. فمعظم هذه المكتبات لا تسمح لمرتاديها بالمطالعة، الا داخل جنباتها، وقليل منها فقط توفر فرص الاعارة خارجها. وقد يستلزم توسيع الاعارة نفقات اضافية، ولكنها ليست بالكبيرة.

ب ـــ تخفيض اسعار الكتب والمجلات. وهذا أمر ينطوي على صعوبة أكبر، لأنه يتضمن جوانب اقتصادية ومالية واسعة، بالاضافة الى الجوانب الثقافية.

وبعد فان ما قدمناه في هذه العجالة، ليس الا ملاحظات متواضعة نأمل ان تسهم في اضافة القليل الى الكثير الذي سبقنا اليه غيرنا. ولا شك ان المشكلة أكبر بكثير من أن تعالج بملاحظات عابرة، وان الطريق نحو انبثاق انسان عربي مولع بالقراءة ما زالت طريقا غير سالكة بعد.. ومتخمة بالعقبات الكأداء، مهما تعددت الدراسات وتنوعت البحوث الخاصة بالقراءة. واختم مقالتي هذه مرددا مطلع أول سورة من القرآن الكريم نزلت على الرسول محمد، ﷺ، الا وهي «**إقرأ باسم ربك الذي خلق**» □

رَاجع مقال : الاستعمال غير الطبي للعقاقير .. كابوس المجتمعات الحديثة




راجع مقال: مناخ الأرض.. إلى أين يتجه ؟